فرانسيسكو مارتينيز دي لا روسا

رواية

Telegram:@mbooks90

إيزابيل دي سوليس

ملكة غرناطة
ثريا النصرانية

Doña Isabel de Solis

Reina de Granada

Francisco Martínez de la Rosa

ترجمتها عن الإسبانية:

د. شيماء مجدي

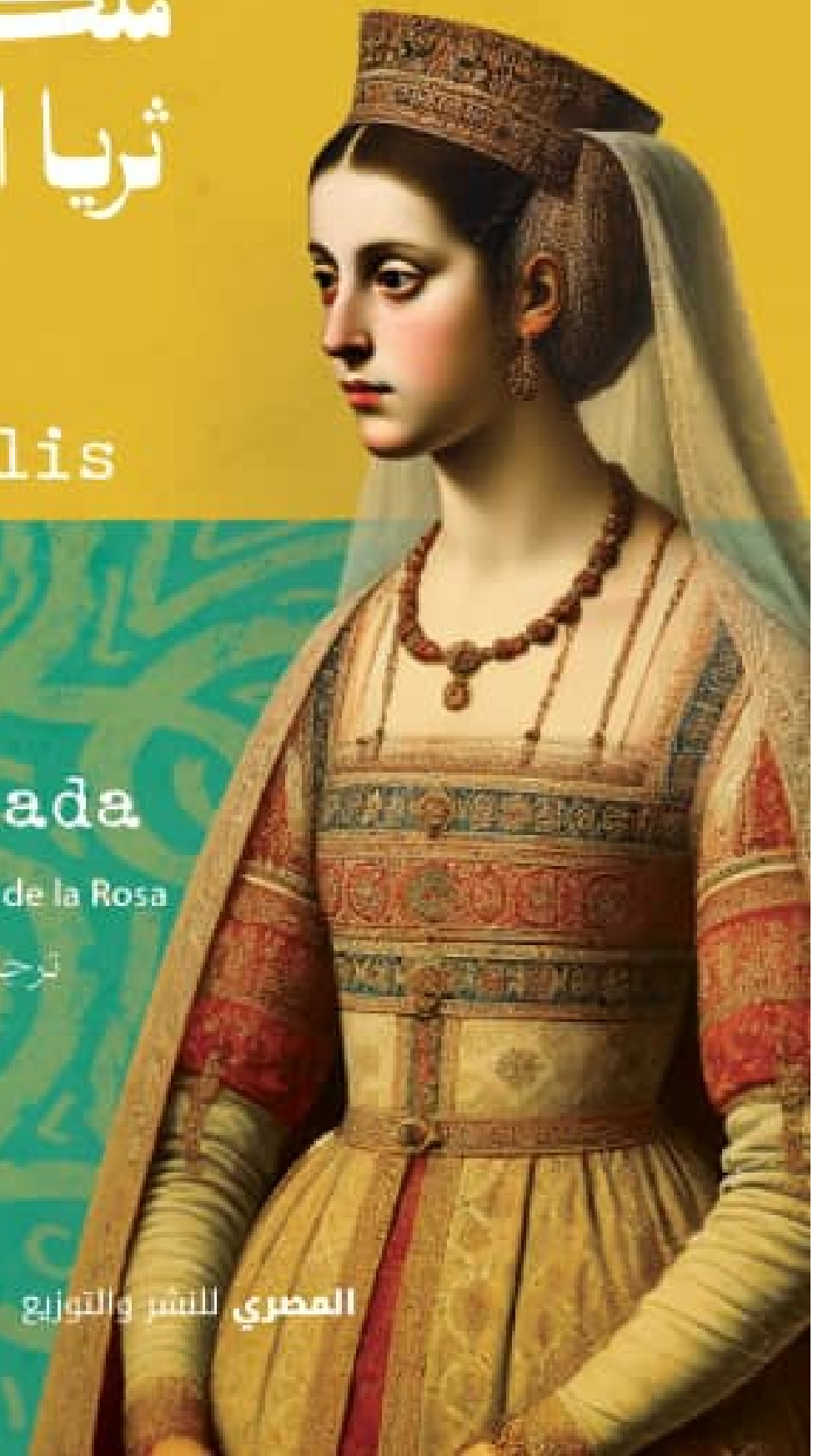

المصري للنشر والتوزيع

إيزابيل دي سوليس، ملكة غرناطة.. ثريا النصرانية
فرانسيسكو مارتينيز دي لا روسا
ترجمة: د. شيماء مجدي
دار المصري للنشر والتوزيع
الترقيم الدولي: 978-977-770-238-6
رقم الإيداع: 2024/15859

www.elmasrypublishing.com
elmasrypublishing@gmail.com
35 شارع أحمد زكي- المعادي- القاهرة
ت: 01146335098
المدير العام: يوسف ناصف

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة لدار المصري للنشر والتوزيع
ولا يجوز التصرف في أي جزء مما ورد في هذا المصنف ورقيا أو رقميا
أو بأي صورة أخرى الا بموافقة خطية من الناشر.

مقدمة المترجم

غرناطة: قصة حب في زمن الحرب

بين جدران قَصر الحمراء، تختبئ أسرار لم ترَ، وحكايات لم تسمَع، إيزابيل دي سوليس، امرأة جميلة وذكية، تغيِّر مجرَى حياتها بين عشية وضحاها، من فتاة إسبانية عادية، إلى ملكة مسلمة في غرناطة، مملكة الأندلس الأخيرة، بين صراعات الحب والخيانة، والحرب والسلام، تبحر إيزابيل في رحلة مثيرة، تواجه تحديات جمَّة، وتؤثر بشكل كبير على مصير غرناطة ومستقبلها.

هذه الترجمة ليست ترجمةً كاملة للرواية الأصلية، بل هي تحقيق واختصار قامت به الكاتبة كارمن دي بورسوس (كولومبين) ونُشر في مدريد عام 1919، سعت كارمن دي بورسوس إلى حفظ جوهر الرواية وقصتها الرئيسية واختصار بعض التفاصيل غير الضرورية، مع ذلك، تُقدم هذه الترجمة للقارئ العربي فرصة فريدة للتعرف إلى هذه الرواية الكلاسيكية من منظور جديد.

اكتشفوا مصير إيزابيل في زمن مضطرب، فهي رواية تاريخية مشوِّقة، تُعيد إحياء غرناطة وتسلط الضوء على فترة مهمة من تاريخ الأندلس، تُعَد رواية إيزابيل دي سوليس، «ملكة غرناطة» من الروايات التاريخية المهمة في الأدب الإسباني، وهي رواية ممتعة وغنية بالأحداث التاريخية والشخصيات الدرامية، تتميز الرواية بأسلوبها الأدبي الرائع، يستخدم الكاتب لغة جميلة ووصفًا دقيقًا للشخصيات والأحداث، كما يتميز الكاتب بقدرته على خلق أجواء درامية مشوقة، وتوقِظ روعة غرناطة، وتُعيد الروح إلى المشهد الجميل والمتنوع لمملكة الوليد بن الأحمر، فتجسد روعة الأندلس الإسلامية وثقافتها.

Telegram:@mbooks90

تستعرض الرواية قصة حب وخيانة وحرب وأسرار البلاط الملكي، تُسلِّط الرواية الضوء على شخصية إيزابيل دي سوليس، وهي امرأة جميلة وذكية وقوية الشخصية، والرواية مِن مؤلفات الكاتب والشاعر فرانسيسكو مارتينيز دي لا روسا في القرن التاسع عشر، تسرد قصة إيزابيل دي سوليس، سيدة إسبانية مِن القرن الخامس عشر اشتُهِرت بكونها زوجة بو الحسن، آخر ملوك غرناطة.

تبدأ الرواية بقصة إيزابيل دي سوليس، وهي سيّدة إسبانية مِن بلدة بيدمار، وتكشف الرواية النقاب عن أسرها في عام 1471، وتم تقديمها كهدية للسلطان بو الحسن، جمالها وذكاؤها سرعان ما لفتَا انتباه السلطان، تحولت إيزابيل إلى الإسلام تحت اسم ثريا أو زريّة (Soraya) وتزوجت السلطان في عام 1482.

أصبحت إيزابيل شخصية مؤثرة في البلاط الإسلامي في غرناطة، مارست نفوذًا قويًا على زوجها وشئون الحكومة، عُرف عنها ذكاؤها ودبلوماسيتها، وساعدت في الحفاظ على علاقات سلمية بين غرناطة والممالك المسيحية المجاورة، ومع ذلك، كان لها أيضًا أعداء في البلاط ، حيث اتهمها بعضهم بالتأثير السلبي على السلطان والتدخل في السياسة.

بين ثنايا حكايتنا، تتراقص أسئلةٌ تُثيرُ الوجدان، وتُلهبُ الفضول، وتُشعلُ رغبةَ الغوصِ في أعماقِ الزمنِ:

أستُصبحُ إيزابيلُ نجمةً ساطعةً تُضيءُ سماءَ غرناطةَ المُظلمةِ، أم ستَغرقُ في بحرِ الخيانةِ والصراعِ؟

كيف ستُواجهُ أعداءها الذين يَحُوكُونَ لها الدسائسَ ويَتربصونَ بها في كلِ خطوةٍ؟

ماذا سيُخبِّئُ لها المنفى مِن مُفاجآتٍ، وهل ستُحافظُ على عزّتها وكرامتها في غربةٍ قاسيةٍ؟

ما المآلُ الذي ينتظرُها في نهايةِ المطافِ، أستُواجهُ مصيرًا مَأساويًا، أم ستُحققُ انتصارًا مُذهلًا؟

أسئلةٌ تُقلقُ الروحَ وتُؤرّقُ الفكرَ، تُثيرُ الشغفَ وتُلهبُ الرغبةَ في معرفةِ ما سيحدثُ في رحلةِ إيزابيلَ المُثيرةِ التي تكشفها لنا الرواية.

سيرة أدبية لفرانسيسكو مارتينيز دي لا روسا
بقلم كارمن دي بريوس (كولومبين)

يمكن اعتبار شخصية مارتينيز دي لا روسا مِن جِهَتَين: أديبًا وسياسيًّا، وُلد في غرناطة عام 1787، وحصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة غرناطة، ثم شغل منصب في تدريس الأخلاق في الجامعة نفسها، كان أديبًا موهوبًا، وكتب العديد من المسرحيات والقصائد، كما كان مفكرًا ليبراليًّا متحمسًا.

عندما اندلعت حرب الاستقلال الإسبانية ضد الاحتلال الفرنسي، انضم مارتينيز دي لا روسا إلى النضال الليبرالي، شارك في أعمال اللجنة المكلفة بصياغة دستور قادش عام 1812، والذي كان من أهم وثائق العصر الليبرالي في إسبانيا.

بعد عودة الملك فيرناندو السابع إلى الحكم عام 1814، عُرّض مارتينيز دي لا روسا للاضطهاد بسبب آرائه الليبرالية، اضطر إلى الفرار من إسبانيا، وعاش في المنفى في إنجلترا حتى عام 1833.

بعد عودة الليبراليين إلى السلطة في إسبانيا عام 1833، أصبح مارتينيز دي لا روسا نائبًا في البرلمان، ثم وزيرًا للخارجية، كان يأمل في تحقيق تقدم في مجال الإصلاحات الليبرالية، لكنه واجه العديد من الصعوبات.

كان مارتينيز دي لا روسا شخصية معقدة، تجمع بين الصفات الإيجابية والسلبية، كان أديبًا موهوبًا ومفكرًا ليبراليًا متحمسًا، لكنه كان أيضًا ضعيفًا ومترددًا في اتخاذ القرارات الصعبة.

أبرز الجوانب في شخصية مارتينيز دي لا روسا:

■ الجانب الأدبي: كان مارتينيز دي لا روسا أديبًا موهوبًا، وكتب العديد من المسرحيات والقصائد التي حظيت بتقدير كبير من النقاد والقراء، كان من أهم أعماله المسرحية مسرحية «الزواج السعيد» (1806)، والتي تعتبر من روائع المسرح الإسباني في القرن التاسع عشر.

■ الجانب السياسي: كان مارتينيز دي لا روسا مفكرًا ليبراليًا متحمسًا، وشارك في النضال من أجل الحرية والديمقراطية في إسبانيا، كان عضوًا في اللجنة المكلّفة بصياغة دستور قادش عام 1812، والذي كان من أهم وثائق العصر الليبرالي في إسبانيا.

على الرغم من بعض أخطائه السياسية، كان مارتينيز دي لا روسا شخصية مهمة في تاريخ إسبانيا، كان أديبًا موهوبًا ومفكرًا ليبراليًا متحمسًا، وساهم في تطوير الأدب والسياسة الإسبانيين في القرن التاسع عشر، ولم يتوقف قط عن مُمارَسة الأدب، الذي كان بالنسبة له مثل ترفيه وعزاء، شيءٌ يُقويه ويرفعه.

كان مارتينيز دي لا روسا أديبًا متعدد المواهب، أبدع في جميع الأنواع الأدبية تقريبًا، بما في ذلك الشعر والمسرح والرواية والتاريخ والصحافة.

المسرح

كان مارتينيز دي لا روسا كاتبًا مسرحيًا بارعًا، وقد كتب العديد من المسرحيات الناجحة، من بينها:

• أوديب، وهي مأساة مستوحاة من أسطورة أوديب الملك.

• مؤامرة البندقية، وهي مسرحية تاريخية تدور أحداثها في القرن السادس عشر.

• ابن أمية، وهي مأساة كتبها بالفرنسية والإسبانية وعرضت على مسرح بورتا دي سان مارتن في باريس.

• الزواج والمبارزة، وهي مسرحية كوميدية تدور أحداثها في القرن الثامن عشر.

• الابنة في المنزل والأم في القناع، وهي مسرحية كوميدية أخرى تدور أحداثها في القرن الثامن عشر.

الشعر

كتب مارتينيز دي لا روسا العديد من القصائد، والتي تتميز بالإلهام والشعور العميق، من أشهر قصائده:

• السلام، وهي قصيدة تدعو إلى السلام العالمي.

• الأندلس، وهي قصيدة تعبر عن حنينه إلى الأندلس المفقودَة.

• الحب، وهي قصيدة تعبر عن مشاعره تجاه الحب.

التاريخ والصحافة

كتب مارتينيز دي لا روسا العديد من الأعمال التاريخية والصحفية، من بينها:

• روح العصر، وهو كتاب يتناول الأحداث السياسية والثقافية في القرن التاسع عشر.

• حياة هيرن بيريز ديل بولغار، وهي سيرة ذاتية لكاتب إسباني بارز.

ظهر مارتينيز دي لا روسا أيضًا ككاتب أخلاقي، وقد كتب كتابًا بعنوان «كتاب الأطفال»، يتناولَ مبادئ تربوية جديرة بالثناء، تسعى إلى تربية الشعور بالجمال، يُعد مارتينيز دي لا روسا أحد أهم الأدباء الإسبان في القرن التاسع عشر، لقد ترك بصمة واضحة في جميع الأنواع الأدبية التي كتبا فيها، وساهم في تطوير الأدب الإسباني بشكل عام.

الرواية التاريخية «إيزابيل دي سوليس» هي نموذجية في نوعها، مثيرة للاهتمام وممتعة، مليئة بوصف مُذهِل ومتوافقة في جميع الأوقات مع الحقيقة، إنها أفضل بكثير من «آخر المرابطين» لشاتوبريان، التي نالت المزيد من الإشادات لأنها من تأليف كاتب أجنبي، يمتلك مارتينيز دي لا روسا الخيال الجميل واللمعان الخاصين بالكتاب الأندلسيين، مثلما كان يمتلكهما قبله ميرا دي أميزكوا وبعده بيدرو أنطونيو دي ألاركون، تُوقظ رواية «إيزابيل دي سوليس» روعة غرناطة، وتُعِيد الروح إلى المشهد الجميل والمتنوع لمملكة الوليد بن الأحمر؛ تجعلنا نفهم مشاعرهم، وصراعاتهم المتأجّجة، وشغفهم الملتَهِب، كل ما هو شاعري في ذكرى تلك السلالة العربية المرموقة، التي نقشت طابعها بعمق في أرض الأندلس.

الفصل الأول
علاقة إيزابيل بوالدها

أعرب حارس القائد سانشو خيمينيز دي سوليس عن خشيته من أن يُفسد هذا الزواج سكينة سيده النبيل، متمتمًا: «لن يُفلح هذا الزواج إلا بفضل دعوات زوجة القائد المباركة، رحمها الله».

«بماذا تهمسين أيتها الغبية؟»، صرخت عليه الخادمة، التي تحمل عبء ستين صومًا وتقشُّفًا تحت غطاء إيمانها العميق، من زاوية الغرفة، يُظهر المرء في العمل ميوله وكفاءته، لكنك تفضّل المهام البسيطة كحمل الرسائل أو مرافقة الصياد، بينما ينكبُ آخرون على العمل بجدّ واجتهاد، فلا يرضيك شيء سوى ركوب حصانك الأسود لتنقل رسالة إلى مدينة جيان(1)، أو حمل الصقر بيدكِ عندما يذهب سيدك للصيد، ولكن عندما يتعلق الأمر بالعمل بجد، تظهر طبيعتك السيئة ولا تُقدم أي مساعدة.

ردَّ الحارس بغضب، راميًا المطرقة التي كان يستخدمها على الأرض، «أنتِ أسوأ من هذه العارضة العفنة! أكثر تعفنًا من ضمير سيدة عجوز! ضميرها أشعث من شعر رأسها، من يثبت مسمارًا في تلك العارضة، فليثبته في جبيني»!

اندفعت الخادمة غاضبة، وكان الموقف على وشك أن يحول الكلمات إلى أفعال، أو بالأحرى إلى خدوش وندبات، حيث اشتهرت ماريا بيريز بعدم قدرتها على الشجار بأي أسلحة أخرى.

امتلأ الهواء في قلعة القائد بالصراخ والعويل، وكأنه صوت جيش من الجنيات الغاضبات، مع الذين كانوا يطلقون أصواتًا عالية لفرض الصَّمت على الآخرين، وبينما كان الصَّدَى ينتقل مِن قاعة إلى أخرى، وبينما كانت الإشاعات تضخم هذه المشاجرة التافهة، كما تفعل عادة مع الأحداث ذات الأهمية الكبيرة، وصلت الضوضاء المضطربة إلى مسامع القائد، الذي كان بعيدًا عن الخوف من اندلاع حرب أهلية في منزله، وكان يقرأ بهدوء إلى جانبه كأنه لا يسمع شيئًا بجوار ضوء الشمعة كتاب

«الحب الخالص» للماركيز الشهير دي سانتيانا.

عاش الرجل في عزلة، بعيدًا عن صخب العالم، كان محبوبًا من قبل أتباعه وأصدقائه، اللذين اعتبروه أبًا لهم، وكان محترمًا من قبل عامة الناس، الذين رأوا فيه رجلًا طيبًا وعادلًا.

ذات يوم، لفت نظر الملكة دونيا إيزابيل إلى الرجل، كانت الملكة امرأة حكيمة وطموحة، وكانت تبحث عن رجال أكفاء لمساعدتها، لكي تكتمل سعادة هذا الفارس الطيب، فقد منحته السماء، ليس ابنة، بل ملاكًا، إذ كانت مخلوقًا بشريًا يمكنه أن يستحق هذا الاسم الرفيع، وبما أن صفات دونيا إيزابيل وجمالها كانت تأسر كل من يراها، وقد امتد صيتها إلى جميع أنحاء المنطقة، فَمِن السَّهل أن نتخيل ما كان عليه أن يبدو في عيون والد لا يحب في العالم سوى ابنته، والذي كان يراها في صورة أمها غير المحظوظة كثيرًا، كان والدها فخورًا بها كثيرًا، وكان يشعر وكأنها هدية من السماء.

لا ينبغي أن يبدو الأمر غريبًا، وخاصةً لمن يشعر بنبض قلب الأب في صدره، أن القائد، الذي كان على وشك أن يحقق حلم حياته، بزواج ابنته الحبيبة إيزابيل، كان يتصرَّف في تلك الأيام بغاية السعادة لدرجة أنه شَعَر وكأنه يطير، وكان القائدُ شَارِدَ الذِّهن، مما أفسحَ المجالَ للخادمِ العنيدِ الثرثارِ الذي طبعُهُ الزَّينُ والإسهابُ، وكَسَبَتْهُ هاتان الخصلتانِ كُرْه السيدة ماريا بيريز طيلةَ ثلاثين عامًا، فهي امرأةٌ وَاعِظَةٌ حَرِيصَةٌ على شريعة الله، أنْ يُظلِقَ العِنانَ لأقوالٍ مُنكَرَة.

بسبب كلمات الخادم اشتعلت السيدة ماريا بيريز غضبًا، عندما وصل القائد إلى الغرفة التي كان يوجد فيها الخصمان كليهما، وكيف أطلقت تلك السيدة الفاضلة مِن فمها كلمات مثل الضفادع والثعابين، فهذا شيء لن ينتهي أبدًا، ولحسن الحظ، تمكن القائد من إسكاتها، بعد جهد كبير، كما أن حشد الخدم والحجاب، الذين أطلقوا العنان أخيرًا للضحك، الذي كان محتجزًا في أجسادهم لفترة طويلة، قد وضعوا حدًا للنزاع.

ما إن خلت الغرفة، حتى كان القائد أيضًا على وشك المغادرة، عندما رأى إيزابيل قادمة بتلك الرشاقة والرقة التي كانت تتميز بها، واستقبلها والدها الحنون بين

ذراعيه، وقال لها: «يقولون إنني مجنون، يا ابنتي، وقد يكونون على حق؛ لكنني مجنون من السعادة، لرؤية كل أمنياتي تتحقق، أسأل الله أن يبارك زواجك، وأن تسبق مشيئة الرب المقدسة مشيئة هذا الفقير الشيخ»، غمرت الدموع عينيه وهو ينطق بهذه الكلمات، ولم يستطع كبح المشاعر التي كانت تنبض في قلبه؛ ولما رأى ابنته حزينة، قبَّلها على جبينها بحب كبير، وشدَّ يديها بين يديه، وحاول أن يلهيها بتغيير الموضوع، وقال لها: «أرجوكِ ألا تكوني كسولة غدًا، يجب أن نغادر القلعة بين الفجرين لنصل في الوقت المناسب إلى نبع العشاق، يقال إن هناك شابًا نبيلًا، وسيمًا، وجذابًا، سيحضر إلى هناك، وَفْقًا للشائعات، لرؤية زوجته المستقبلية».

***

الفصل الثاني
تربية إيزابيل

لم تكن إيزابيل قد رَأت زوجها المستقبلي، دون بيدرو فينيغاس، مِن قبل، ولكنها كانت قد سمعت إشادات بجدارته، ليس فقط بسبب لطفه، بل أيضًا بسبب الصفات الجيدة التي كانت تبرز فيه بالفعل، والتي ورثها من عائلة سيدة لوكي، أحد أبرز العائلات في مملكة قرطبة.

كان هذا الزواج يجهز بأسعد الأمنيات، كما لو أن الحظ نفسه سيحضره، ومع ذلك (فقلب الإنسان أمر غامض)، فإن قلب الفتاة النبيلة لم يكن راضيًا بعد، وشعرت ربما بشعورٍ من الكآبة، عندما رأت الفرح ينفجر في كل مكان، حتى يكاد يصل إلى الجنون، وليس ذلك لأن إيزابيل كانت تعاني من حب آخر، ولا لأنها قد وافقت في هذا السن الصغيرِ على أي مواعدة.

وهكذا كان الحال، فبينما كانت إيزابيل طفلة صغيرة جدًا (كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات على الأكثر)، وكانت قد نشأت حتى ذلك الحين بصِحَّة جيدة ونَضِرة لدرجة أن رؤيتها كانت تبعَث على البهجة، بدأت تدريجيًا الذبول، دون أن نتمكَّن مِن مَعرفة السبب، ولكن من خلال ضعف قوتها وضعف عينيها، كان واضحًا أن مرضًا خفيًا كان ينخر جسدها.

ولا داعي لذكر حزن الأب، واضطراب المنزل، وكثرة العلاجات، والنذور والصلوات، ادَّعَى الطبيب الأكثر شهرة في مارتوس، الذي لم يكن بحجم ابن سينا بأي حال، بكل ثقة أنه يعرف مرض الطفلة، وكأن جسدها مِن زجاج شفاف، بل إنه كان على استعداد للمراهنة بسترتِه (رغم أنها بالية للغاية) على قدرته على شفائها في غضون أربعة أيام باستخدام العقار الذي يصِفُه لها، ومهما كان الأمر، فإن هذه الأدوية لم تؤدِّ إلى التأثير المنشود، كان الجميع يعتقدون أنها قد تعرضت للعين الشريرة بسبب جمالها النادر.

لم يصدق القائد هذه الأحاديث والأباطيل التي كان يردِّدها الناس، لكنه لم يكُن

يثِقُ كثيرًا في الطبيب الفاشل، وكان يرى أن خطر فقدان ابنته يقترب، لذلك لم يغلق أذنيه تمامًا عن أي علاج يُقترح عليه، مهما بدَا له غريبًا، وهذا أمر طبيعي في الحُب الشديد، فهو يجعل الإنسان يميل إلى الإيمان بالخرافات.

وفي النهاية فقد الأمل في أي مخرج آخر، فقرَّر القائد إرسال رسله على وجه السرعة إلى القائد حاكم(2) قلعة كابر، وطلب منه أن يسمح له بأخذ جاريته المسلمة، التي كان يعتقد أنها قد تكون قادرة على إنقاذ ابنته، ولم يمضِ وقت طويل حتى شاهد القائد الجارية من أعلى البرج، ثم صعد بها على السلم يحملها على كتفيه تقريبًا، وذهب بها إلى سرير ابنته، وشعر القائد بالبكاء عندما سمع الجارية تقول، بعد أن نظرت إلى إيزابيل لبضع لحظات: «يا ابنتي المدللة، يا من هي جميلة كالشمس، أنت في خطر شديد!».

وأضافت الجارية: لكن لا يهم، لقد نجحت في إنقاذ آخرين من براثِن الموت، والرب كبير ورحَيم، يا ليت أحدًا يأخذني الآن في رحلة إلى جنة الأرض، ليس أكثر من سفح جبال سييرا نيفادا، حيث تنمو جميع النباتات في العالم، مصادر الحياة، هدية للإنسان، غدًا سأحتضن ابنتك، أكثر نضارة مِن زهرة عندما تهز الغبار بالندَى، لكن لا نضيع الوقت في أحاديث عقيمة، اجعل بعض الخدم يصطحبونني إلى الجبال المجاورة، يكفي اثنان أو ثلاثة، لكن تأكَّد مِن أنهم سريعو الأقدام، حتى يتمكنوا من تسلق المنحدرات، وأن يطيعوا أوامري في كل ما آمرهم به، تم ذلك على الفور، غادرت الجارية، حاملة معها قلب الأب المضطرب؛ وعادت بعد ذلك، بعد بضع ساعات، محمَّلة بالأعشاب، التي جمعتها بيديها، لأنها لم تثِق في الآخرين، قائلة لكل نبتة كانت تقطعها، مع تنهيدة عميقة: «لا شيء أجمل من النباتات في غرناطة!».

كان ذلك أمرًا عجيبًا، ولم يُتحدث عن أي شيء آخر في المنطقة بأكملها لفترة طويلة بعد ذلك، لم يمضِ ثلاثة أيام بعد ذلك، عندما بدأت الجميلة إيزابيل تتعافى، مثل ضوء ينطفئ؛ بسبب نقص الطعام ويعود فجأة، لم يعرف الأب الحنون كيف يُظهر امتنانه لتلك المرأة المُحسِنَة، وكما أن العامة عادة ما يكونون مُشتبها بهم ولعنين، لم يتوقف الناس عن الهَمس في المدينة أن ذلك الشفاء كان مِن عمل

الشيطان، وأنه من الأفضل أن تفقد ابنة بدلًا من أن تدين بها لأيد غير مؤمنة.(3)

خلال فترة النقاهة، اكتسبت إيزابيل تعلقًا كبيرًا بالعبدة، إما بسبب امتنانها لها لإنقاذها من الموت، وإمَّا بسبب رعايتها المستمرة واهتمامِها، بحيث لم تسمَح لها بعد ذلك بالابتعاد عنها ولو لخطوة واحدة، ورأى الأب نفسه في حاجة إلى قبول عرض الكونت للسماح لها بالبقاء في المنزل، وهكذا بقيت العجوز أرلجا، ليس كأسيرة في منزل القائد، بل أكثر من ذلك كأمَة وسيدة، تعتني بإيزابيل، ودائمًا في صحبتها، وتكسب شيئًا فشيئًا هيمنة مُطلِقة على إرادتها، وهو شيء ثقيل جدًا على بقية العائلة، الذين لم يتمكنوا من رؤية التفضيل الممنوح لكلبة (كما كانوا يُطلِقون عليها في أحاديثهم السرية) دون ندم وحسد، وتوقعوا آلاف المصائب في المستقبل، إذا ترعرعت تلك النبتة الرقيقة في مثل هذا السند السيئ.

أدّت انشغالات القائد وانصياعه لِرغباتِ ابنتهِ إلى منح العبدة حريةً واسعةً، نسيَتْ معها حالتَها كأَسيرةٍ، وبدأتْ تُسيءُ استغلالَ نفوذِها بشكلٍ مبالغٍ فيهِ، ووصلَ الأمرُ إلى حدِّ إظهارِ عدائِها للمسيحيينَ الذين سلبوها حريتَها وعائلتَها ووطنَها.

كانَت تحبُّها بحنانٍ عميقٍ، كأنّها أمُّها، وهو الاسمُ الذي كانتْ تُناديها بِهِ في كثيرٍ من الأحيانِ، كأنَّها قد أعطتها الحياةَ مرةً ثانيةً، وبسببِ شدّةِ حبِّها وكراهيتِها في الوقت نفسه، قد امتزجت مشاعرِها تجاهَ إيزابيلَ وكراهيتِها للمسيحيينَ وذكرياتِ سعادتِها المفقودةِ، لم يكنْ يمرُّ يومٌ دونَ أنْ تعبّرَ عنْ هذهِ المشاعرِ بطريقةٍ أو بأخرى، مما أثرَ سلبًا على قلبِ الفتاةِ الساذجةِ.

قالت لها الخادمة، بينما كانتَا وحيدتين: «يا له من حظٍ عاثرٍ أن تُولدي في هذه الأرض القاسية، كأنكِ لؤلؤةٌ دفينةٌ في صدفةٍ خشنةٍ، ستنمين وتزهرين جمالًا، تستحقين عرشًا لا أقلّ بفضلِ صفاتِكِ النبيلةِ، لكنّ أيامكِ ستُقضى في قلعةٍ مُتهالكةٍ، مع زوجٍ لا يُقدّرُ قيمةَ الكنزِ الذي حظى به.

ستكونين كوردةٍ تنمو بينَ الأعشابِ الضارةِ، تخنقها الأشواكُ حتى تذبلُها الشمسُ أو تُسقطها الرياحُ، وحتى لو حملكِ القدرُ إلى بلاطِ قشتالةِ، فلا أظنّ أنّكِ ستجدين هناكَ ما هو أفضلُ، فبحسبِ ما سمعتُ من القادمين مِن هناك، لا يوجد بلاطٌ أكثرَ

بخلًا وكآبةً مِن ذلك، حتى لو بحثتَ في أنحاءِ العالمِ كلّها، الملكةُ هناكَ تُساومُ على العملاتِ المعدنيةِ، كما لو كانتْ قصصًا خياليةً، تُخيطُ ملابسَها بنفسِها، كأنّها فلاحةٌ متواضعةٌ، وتُحوّلُ قصرَها إلى ديرٍ، وتُبعدُ عنهُ الحبّ والاحتفالاتِ والمغازلاتِ، ولا تَرى في تعلّمِ اللاتينيةِ إلّا ترفيهًا لِسيداتها!».

يا له من قدرٍ مختلفٍ كانَ لكِ، يا ابنةَ أحشائي، لو كنتِ ولدتِ في الأرضِ التي أُعطيتُ فيها الحياةَ، في غرناطةَ البيضاءِ والنيرةِ، أجملَ مدينةٍ وأكثرَها بهجةً التي تُنيرُها أشعةُ الشمسِ الدافئةِ، وتُزيّنُها حدائقُها الخضراءُ، تُشبهُ جنةً على الأرضِ.

ستَرينَ هناكَ الأنهارَ تتشابكُ بأذرعِها الفضيةِ حولَ أسوارِها، وتُزهرُ الأزهارُ منَ الحجارةِ، وتجرُّ المياهُ الكريستاليةُ حبيباتِ الذهبِ الخالصِ.

في غرناطةَ، تُزهرُ جميعُ ثمارِ العالمِ في مساحةٍ صغيرةٍ، من ثمارٍ في طورِ الإزهارِ، إلى ثمارٍ مُبكرةٍ، وثمارٍ متأخرةٍ، بينما تُغطّي الثلوجُ القممَ الجبليةَ، وتُتمايلُ النخيلُ على سفوحِها.

تُشبهُ غرناطةُ بستانًا مُحاطًا بِأسوارٍ مِن الجبالِ، وفي وسطِ هذا البستانِ تبرزُ المدينةُ بأبراجِها المائتينِ والثلاثينَ، مُحاطةً بِالحدائقِ الخضراءِ، كأنّها تاجٌ منَ الزُّمُرُّدِ.

الحياةُ في غرناطةَ كأنّها حلمٌ رائعٌ، حيثُ تُشجعُ الأرضُ والسماءُ والهواءُ على الحبّ، وبمجردِ أنْ تبدأُ الفتاةُ حياتَها، فإن جمالها يصبح حافزًا للشجعان ومكافأة للأوفر حظًا مِنهم.

كانت إيزابيل تستمع إلى العجوز أرلجا، متأثّرة كما يستمع الطفل إلى القصص التي ترويها له مربيته، أكثر مِن مَرّة حلمت بقصر الحمراء، مُعتَقِدَةً أنها انتقلت إلى تلك المنطقة المحظوظة، وعندما تستيقظ في الصباح وترى نفسها مُحاصَرة في جدران ماريو(4)، يكاد يؤلمها قلبها لأن الوهم المُحبّب قد تبدّد في لحظة.

الفصل الثالث

نافورة العشاق

لا يُذكر أن أي شخص قد رأى في تلك المقاطعة قافِلَة أكثر روعة مِن تلك التي خرجت من القلعة، مُتَّجِهة إلى نبع العشاق، حيث كان مِن المُقرر أن تتحقق اللقاءات المُنتَظرة، لم تكن اللجنة أقل عددًا مِن كونها رائعة، مع صِبية يرتدون ملابس جديدة، بريش وذيل من ألوان مختلفة، أقارب القائد، وإقطاعيُوه ومستعمروه، وحاشيته وخدمه، يركبون خيولًا قوية، وُلِدَت على ضفاف نهر الوادي الكبير، وخلفهم كانت السيدات على ظهور الحمير، كانت السيدات يرتدين ملابس فاخرة، مع أغطية من المخمل القرمزي، مطرَّزة بالذهب، كانت ملابسهن غنية ورائعة، وكأنما كانت مصنوعة مِن أشعة الشمس، وفي وسط السيدات كانت الحسناء، أكثر جمالًا مِن شروق الشمس نفسه الذي كان يكاد يُذهب اللون الذهبي للسماء، كانت بشرتها ناعمة كالحرير، وعيناها سوداوينَ كالليل، كان شعرها الأسود الداكن كظلام الليل، يُضفِي على بشرتها البيضاء الناعمة هالة مِن النور، وبينما كانت تقِف في شرفة غرفتها، تنتظر زوجها المستقبلي، لم تكن مشاعرها تعكس جمالها الأخَّاذ، فالأحلام المزعجة التي راودتها الليلة الماضية، والقلق على مستقبلها مع رجل لم ترَه من قبل، كلها عوامل ساهمت في إضعاف لون وجهها، الذي كان شاحبًا بطبيعته، وكأن الطبيعة نفسها أرادت أن تُظهِر روعة ملامحها أكثر، من خلال هذا الشحوب الذي لم يُخفِ جمالها، بل أضاف إليه لمسة من الحزن والغموض.

بعد رحلة طويلة وشاقة، وصل موكب الزواج أخيرًا إلى نبع العشاق، وهو مكان جميل يقع عند سفح منحدر رقيق ينتهي في مرج أخضر، بمجرد وصولهم، نزل الجميع من الخيول وتفرقوا في المرج، مثل سِرب مِن الطيور الكثيف، عمَّت أجواء البهجة والسعادة على الجميع، فما أن وطَأت أقدامهم ذلك المكان المميز حتى انفجرت مشاعرهم فرحًا، لقد غمرت السعادة قلوبهم، وكأن كل واحد مِنهم سيُزفُّ عروسًا في ذلك اليوم.

بينما كان الجميع مشغولين بغنائهم وحديثهم، وكان الشباب الأقوياء يتباهون

بقدرتهم وقوة أجسامهم، ظهرت فجأة سحابة من الغبار في الأفق، وسمع الجميع صوتًا واحدًا: «لقد وصلوا! ارتبكت إيزابيل، العروس، كما هو متوقع، وشعرت بالتوتر الشديد لدرجة أنها لم تستطع التحرك، على الرغم من أن والدها كان يمسك بيدها بحنان، ليخرجها لمقابلة زوجها ومرافقيه، كان هناك بعض العدّائين في المقدمة، وهم يصرخون ويهتفون، وردد الناس من تابعي القائد الهتافات نفسها، تصاعدت صيحات المتفرجين وهتافاتهم مع اقتراب المتسابقين الأوائل مِن خط النهاية، وانضمَّ إليهم أنصار القائد في ترديد الهتافات، بينما تردَّدَت بين الجبال أصداء التصفيق والصخب، وفجأة، لفت انتباههم شاب وسيم يركض بسرعة فائقة، تاركًا خلفه جميع منافسيه.

كان فينيغاس، العروس المنتظر، يمضي في طريقه بثقة كبيرة ورغبة عارمة في الوصول إلى خط النهاية، وفي سعيه لتقليل المسافة، حثَّ جواده على القفز فَوْق خندق عَميق، ممَّا أثار صراخ بعض الفتيات.

وصل فينيغاس أخيرًا إلى حيث كان يقف القائد وابنته إيزابيل، نزل عن حصانه ببراعة ووقار، ولكن بمجرد أن ركع أمام إيزابيل الجميلة ونظر إليها، شعر بالتوتر الشديد لدرجة أنه بالكاد استطاع أن ينطق ببضع كلمات غير مفهومة.

احمرَّ وجهه مثل القُبَّعة الحمراء التي كان يرتديها، ولم تكن إيزابيل أقل توترًا منه، لم تجرؤ إلا على النظر إليه في بَعض الأحيان خِلْسة، حاول القائد وزوج عم فينيسيوس، الذي وصل بالفعل، تخفيف التوتر من خلال بدء محادثة متنوعة ومُنسَّقة على ضِفاف النافورة.

شهدت الفترة التي سَبقت زفاف العروسين في القصر أجواءً احتفالية استثنائية، حيث توافد الناس من جميع أنحاء المنطقة لرؤية العروسين والاستمتاع بالاحتفالات، كانت الطاولات دائمًا مُزدَحِمَة بالناس الذين يأتون لتناول الطعام والشراب، وكانوا يتزاحمون حول الأطباق ويسمعون صوت تصفيق الأكواب، تحت وطأة الاستهلاك المُفرِط للطعام والشراب، ازداد عبء المُشرِف على مَخزن المؤن بشكلٍ هائل، لدرجة أنه لم يجد بُدًّا من التوجُّه إلى القائد نفسه طالبًا النجدة.

كانت الاحتفالات التي أُقِيمَت بمناسبة زفاف إيزابيل وفينيغاس بسيطة وتقليدية، كما هو مُتوقَّع في تلك الأوقات الصعبة، كانت الناس أكثر دِراية بممارسة الحرب والزراعة أكثر من الترفيه الفاخر، في مساء اليوم الأول، أقيمت مصارعة ثيران في فناء القلعة.

في زمنٍ عانت فيه الناس مِن قَسوة الحرب، كان تحضيرات زواج إيزابيل وفينيغاس بسيطة اتسمت بالتقاليد، فلم يكن الترفيه الفاخر مألوفًا في تلك الأوقات الصعبة، حيث انشغلت الناس بالحرب والزراعة.

في مساء اليوم الأول من الزفاف، أقيمت مُصارَعة ثيران في فناء القلعة، صارع الشباب ثورًا جامحًا بمهارةٍ فائقة، بينما كان الثور قويًا وخطيرًا، ونجح في إسقاط العديد من الريفيين المتهورين على الأرض.

علا الضحك والبهجة بين الناس مع كل هجمة، دون احترامٍ للبلاط أو الحراس، وعندما ضاق الثَور ذرعًا، بحثًا عن مَخرج مِن الحَلبة، قَفَز فوق حاجز من ألواح خشبية متهالكة.

نتج عن ذلك سقوط العديد من الأشخاص في الساحة، ممزقًا سراويلهم من الجانب الخلفي، كان هذا الحادث كلمسةٍ كوميدية في خضم الاحتفال، تعكس بساطة الحياة في ذلك الوقت، وقدرة الناس على إيجاد البهجة حتى في أحلك الظروف.

في ساحة القلعة، اجتمع الناس البسطاء لمُشاهَدة لعبة رمي الديك، تلك اللعبة القديمة التي أعيد إحياؤها بعد قُرون مِن الغياب حيث كان اثنان مِن المكفوفين يقِفان في وسط الساحة، كلٌ منهما يحمل عصاً غليظة، يتنافسان على الفوز بحيوان لذيذ.

كانت لعبة غريبة، مليئة بالضحكات والتشويق، يعصب أحد المتسابقين عينيه ويبدأ الجري نحو الديك، مسترشدًا بصرخات الجمهور، بينما يحاول الآخر تفادي الضربات.

مع كل ضربة خاطئة، ترتفع ضحكات الحضور، بينما يشعر الديك بالرعب ويحاول الهرب، كان مشهدًا غريبًا، امتزجت فيه القسوة والمرح بين حماسة المنافسة وفرحة الانتصار، في النهاية، ينهي القائد المعركة، معلنًا فوز أحد المتسابقين.

لكن المكفوفين كلَيهما كانا أكثر اهتمامًا مِن اليهود، ولم يرغب أي منهما في التنازل عن حقه ما دام بقيت لديه نفس واحدة، لم يتفقوا على هدنة أو اتفاقات أو سلامات، إلا بشرط أن يتم مَنح كل مِنهما جائزة مساوية للجائزة المعروضة، دون تخفيض فِلس واحد، لم يكن القائد مستعدًا للتخلي عن أي شيء مِن ثروته، وأمر بنَقل المكفوفين إلى غرفة قريبة، أمر بإحضار اثنين من الخنازير، وربط أحدهما بأقدامه الأربعة، وربط الآخر بأذنيه، ثم قال للمكفوفين: «اذهبوا الآن، وابحثوا عن جائزتكما»، خرج المكفوفان من الغرفة، وكل منهما يمسك بعصاه، وبدءوا البحث عَن الخنازير، سرعان ما وجد أحدهما الخنزير المرتبط بأذنيه، وبدأ ضربه ضربًا شديدًا، حتى خرقه من الداخل إلى الخارج.

عندما سمع الضجيج، أسرع لمعرفة ما يجري، فوجد الخنزير الآخر، ذا القدمين المقيدتين، يتعرض للضرب مِن قبل الرجل ذاته، لم يتردد الرجل، وبدأ ضرب الخنزيرين بلا رحمة حتى سقطَا على الأرض، جريحين وممزَّقين، ثم اتجه الرجلان إلى القائد، يطالبان بجائزتهما.

نظر القائد إلى الخنازير الممزقة، وشعر بالاشمئزاز مِن تصرُّف الرجلين، وقال لهما بغضب: «لقد وجدتما جائزتكما، فخذوها!»، أخذ المكفوفان الخنازير، وخرجوا مِن القلعة، يملؤهما شعورٌ غريبٌ من السعادة الممزوجة بالخوف.

ففي النهاية، نالوا ما سعوا إليه، لكن بأي ثمن؟ لقد تلطخت أيديهما بدماء حيوانات بريئة، وربما ستظل هذه الذكرى تطاردهم إلى الأبد.

لم يكن القائد العسكري، الذي كان معروفًا بطيبته، راضيًا تمامًا عَن الحفلة التي كانت تُعدُّ لآخر مساءٍ من الاحتفالات بزفاف ابنته، ومع ذلك، فقد تظاهر بأنه لا يعلم بالاستعدادات التي كان يَقُوم بها رامي سِهامٍ قديم، كان يكن له كثيرًا مِن الاحترام لأنه رافقَه في الحرب، وكان هذا الرجل، الذي كان مُثقلًا بالسنوات والأمراض، قرر

أن يقضي بقية حياته هناك، وأطلق على نفسه لقب «قائد القلعة»، كان شغوفًا بهذا المفهوم لدرجة أنه لا يتحدث إلا عن الجسور المتحركة والثغرات والأبراج(5)، وكان يأمر بضرب الطبول لدعوة الحصادين لتناول الغداء، بل كان يخرج خلسة في ليالي الشتاء، دون أن يخشى خطر الإصابة بنزلة برد، لتفقد أبراج المراقبة لمعرفة ما إذا كان قد اكتشف نارًا أو دخانًا، وكان مِن المُستحيل ألا يقوم بهذا، الحاكم المعروف باستعداداته الحربية القوية وحبّه الشديد للقائد، فظلّ مستيقظًا طوال الليل ولم يسترح لمدة أسبوعين، وهو يستعد بحماسة لحفلة مسيحيين ومسلمين.

كان يجد مُتعة كبيرة في تنظيم محاكاة حربية، وكان يستغلها للحديث عن مآثره في شبابه، وفي هذه المناسبة، كان يرغب في تنظيم معركة ميدانية كبيرة بمناسبة زفاف ابنة القائد العسكري، لكنه واجه صعوبة في إيجاد أشخاص يرغبون في أداء دور المسلمين، على الرغم من أنه عرض عليهم ضعف حصتهم من النبيذ، وهو أمر مخالف لأمر النبي محمد، وذلك لأن المسلمين كانوا يعرفون أنهم سيخسرون المعركة، ليس فقط أمام الفلاحين المسيحيين، ولكن أيضًا أمام حشود الأطفال الذين اعتادوا رشقهم بالحجارة في أثناء فرارهم، في النهاية، فقد امتنعوا عن المشاركة، وبحق، في مثل هذا القتال غير المتكافئ، على الرغم من أنهم كانوا يرتدون لفائف كاملة من ورق الكرتون تحت قبعاتهم، لحماية رءوسهم من الحجارة.

كانت إيزابيل الجميلة أكثر لطفًا ووداعة بعض الشيء من يوم الزيارات السابقة، بل إنها بدأت تشعر بالانجذاب نحو الشاب الوسيم، على الرغم من أنها لم تختبر بعد تلك المشاعر اللذيذة، وخفقان القلب بمجرد نظرة واحدة، والتي تسبب كثيرًا مِن اللذة مَرّة واحدة في الحياة، عند ميلاد أول الحب، أما بالنسبة للشاب فينيسيوس، فقد لعبت الصدفة دورها بالفعل، منذ أن رأى الفتاة اللطيفة، لم يستطع أن يبعد عينيه عنها أو أن يمحوها من ذاكرته، كان يراها في كل مكان، ويميز صوتها مِن بعيد، حتى إنه يعرف خطواتها، وفي الليلتين اللتين قضاهما في القلعة، لم يستطع أن يهدأ ولو لحظة واحدة.

أخيرًا، أخيرًا، حلّت ليلة الزفاف، وحلّ مَكان الضوضاء والارتباك في المساء نوع

من الهدوء والسكون، كما يحدث عادةً في البحر بعد العاصفة، ولأن الناس العاديين كانوا منهكين للغاية، فقد تفرَّق مُعظَمُهم في أنحاء القلعة، مستسلِمين للسُّكر والنوم في الساحات والممرات، لكن الخدم الأكثر قدمًا والسيدات والسادة كانوا ينتظرون بفارغ الصبر بدء الحفل عند باب الكنيسة حتى يَحين الوقت المُحدَّد للحفلة العظيمة، بعد ذلك بقليل، ظهر موكب مَهيب مِن الخدم، يتقدمون في صفَّين متناسقين، حاملين مشاعل مِن الشمع في أيديهم اليمنى وقبعاتهم في أيديهم اليسرى، سارت خطواتهم ببطء ووقار، تعكس الجدية والرهبة التي تملّكتهم، خلفهم، سار العرسان المستقبليون، كل منهم غارق في أفكاره الخاصة، لا يجرؤ أحد منهم على رفع عينيه، وأخيرًا، أتى القائد العسكري دون ألونسو ورفاقه، تملؤهم الحماسة والسعادة، وكأنهم عرَّافين لهذه الحفلة المميزة، واختتم الموكب مرافقات إيزابيل، جميعهن مغطيات بمعاطفهن، يرافقهن بعض الفرسان المحظوظين الذين نالوا شرف المشاركة في هذا الحدث العظيم.

كانت إيزابيل راكعة عند قدمي المذبح، ترتجف بشدة، شاحبة الوجه، إلى جانبها العروس، الذي كان مضطربًا للغاية، ولم يستطِع حتى أن يرفع رأسه، كان الكاهن يتلو الكلمات المقدسة، وحان وقت تلقِّي الجَواب الذي سيجمعهما إلى الأبد، عندما سَمِع الجميع فجأة صراخًا حادًا، جعلهم جميعًا مذهولين، اعتقدوا في البداية أنه كان مجرَّد مشاجَرَة بين الناس في القلعة، الذين فقدوا السيطرة بسبب السُّكر والاحتفال، لكن بعد لحظة، سمعوا صرخة «طلقة نارية!»، التي أذهلت الجميع، ومع اقتراب الحشد أكثر فأكثر، تميز بوضوح صوت الأسلحة، وركض الهاربين، وأنين الموتى، سقطت إيزابيل مغمى عليها، وحملها زوجها بين ذراعيه، فرّ الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يحيطون بها مذعورين، انطلق القائد العسكري كالبَرق لِمعَرِفَة سبب هذا الاضطراب بنفسه، تبعه دون ألونسو عن كثب لمساعدته في أي موقف، لكن عند وصولهم إلى باب الكنيسة، سد الحشد طريقهم، واندفعوا إلى الداخل لحمايتهم في آخر مَعقِل، صرخ القائد العسكري، لكن لم يستمع إليه أحد، طرح أسئلة كثيرة، ولم يتلقَّ أي رد، كان كل ما يتردد هو أصوات البكاء والنحيب والعويل، كما لو كان الموت يطاردهم جميعًا عن كثب.

ولسوء الحظ، فقد تسلل المسلمون إلى قلعة الحدود، مستغلين الظلام، وأملًا في أن يكون السلام قد أصاب المسيحيين بإهمال لا يقل عن الكسل والنوم، فقد دخلوا القلعة من الأبواب، وأكتظت بالجنود، وأضرموا فيها النار، كل ذلك في لحظة واحدة، استيقظ المسيحيون التعساء مذعورين، لا يصدقون ما يرون، بل وربما تخيل بعضهم أنهم أصدقاؤهم، لا يزالون يرتدون التنكر، وفي اللحظة نفسها، انتقلوا من أحضان النوم إلى أحضان الموت، لم يكن هناك رحمة ولا شفقة، فلم يفرّق المسلمون بين المسيحيين، بغض النظر عن أعمارهم أو عقولهم أو استغفارهم، فقد ركض بعضهم عبثًا بحثًا عن أسلحتهم، بينما قفز آخرون في النار هاربين من الصلب، أما الأكثرية، فقد تجمعوا عند أبواب الكنيسة، داعيين باسم الله، في ذعر متجمدة شفاههم من الرعب.

بالسيف في يده، وثابتًا كالتمثال، انتظر القائد المسلمين، دون أن ينطق بكلمة واحدة: بالكاد كان يمكن تمييز ما إذا كان حيًا أو ميتًا، لقد تلقى مئة جرح، وما زال واقفًا، لكنه ترنح بعد ذلك وسقط، وهو يجر نفسه بصعوبة حتى مات إلى جانب زوجته، أمام المذبح، كان الشاب يحمي إيزابيل، وكأنما كان يحميها بجسده، دون أن يعرف ما يحدث: لم يكن لديه أسلحة للدفاع عن نفسه، ولم يكن ينتظر مساعدة بشرية، لكنه لم يكن يهتمُّ بحياته، فقد اخترق قلبه الخطر الذي يدور حول حبيبته.

صرخ القائد من بعيد: «أسلموا أو موتوا!»، وبينما كان يندفع لفصلهما، احتضن الشاب زوجته، فسقط مغمورًا بدمائه، بعد أن تلقى جرحًا في جبهته، كان عددًا قليلًا مِن التعساء الذين نجوا بحياتهم في تلك الليلة العصيبة أكثر تعاسة ألف مرة ممن ماتوا فيها، في لحظة خاطفة، تحول شعورهم بالألم إلى سجنهم في أرض غريبة بأغلال قاسية، كانت إيزابيل، غارقة في صدمة عميقة، لا تبدو عليها أي علامة من علامات الحياة، لكنها حظيت بنعمة السماء، فلم تشعر بثقل كل تلك المصائب، وبعد أن نهب العرب القلعة، وجمعوا غنيمتهم المذعورة، فروا بها مسرعين، قبل أن يطلع النهار أو ينتشر خبر تلك الفاجعة.

***

الفصل الرابع

أسر إيزابيل

في منزل ريفي مُتواضِع، على مسافة قليلة من الحدود، وكأنها مخبأة في قلب الوادي، كانت إيزابيل الحزينة مستلقية على فراشها، بلا وعي ولا حركة، وقد تعطّلت قواها وحواسها، وكانت تتنفس بصعوبة، وفي فجر اليوم الرابع بعد وقوع الكارثة، أصدرت أنينًا عميقًا، وضعت يدها على قلبها، وعادت إلى وعيها وهي مذهولة، كما لو كانت تتذكر حلمًا ثقيلًا، لم تكن تتعرف على المكان الذي كانت فيه، ولا تعرف ما مصيرها، فقد اختفى والدها وزوجها والمذبح والناس والقلعة، كل شيء اختفى كما لو كان بفعل السحر، وبعد أن فتحت عينيها بشيء مِن القلق والحزن، ولمسَت مرّة وأخرى الأشياء التي كانت تحيط بها، ظلت متحيرة لفترة طويلة إن كانت نائمة أم مستيقظة.

شعرت إيزابيل براحَةٍ غامرة في قلبها، عندما سمعت صوت صديقتها العزيزة أرلجا، وأدركت أنها هي من كانت تحتضنها في ذراعيها، أطلقت العنان للدموع المكبوتة، وبكت لفترة مِن الوقت، دون أن تتمكّن مِن نُطقِ كلمةٍ واحدة، لكنها شعرت بالقيد الذي كان يخنقها يبدأ الانحلال، بمجرد أن تنفست الصعداء بمزيد من الهدوء، طرحت العديد من الأسئلة غير المترابطة على صديقتها القديمة، التي كانت مرتبكة للغاية ولم تستطع الإجابة عليها، ولكن عندما أدركت إيزابيل من خلال إجابات غير مؤكّدة بلف ودوران، أنها كانت وحيدة بلا سندٍ، وفي أرضٍ مُعادِية، وأسيرة لدى المسلمين، بدأت إصدار صرخات عالية، حتى بدا وكأن قلبها يتمزق، ورفعت يديها إلى صدرها، كما لو كانت لتتخلص بسرعة من ثقل الحياة.

بعد أن عادت إيزابيل إلى حالتها السابقة نفسها، بل وربما اقتربت أكثر من حافة القبر، بدأت حالتها العقلية وصحتُها التحسن بفضل قوة الشباب، والعلاج، ورعاية أرلجا، أو بالأحرى أحكام السماء العليا التي كانت قد أعدّت لها ثروةً غريبةً ومتنوعةً، ومع ذلك، ظلت حالتها متدهورة وعرضةً لمخاطر فترة نقاهة طويلة، أدركت أرلجا أن إيزابيل ضعيفة، وتخشى انتكاسةً أكثر خطورةً ربما من الأولى، فبذلت قصارى

جهدها لمنع ظهور أي شيء قد يذكرها بوضعها المرير، كانت أرلجا هي وحدها من يخدمها، ولا تبتعد عنها، وتنام عند قدم سريرها، وعندما حان الوقت للإجابة عن أسئلتها بشكل كامل، حرصت المرأة الذكية على إخفاء وفاة القائد، لترك هذا العزاء لابنتها اليتيمة، أفهمتها أن والدها قد نجا، وكذلك دون ألفونسو دي قرطبة، وأنهما قد انطلقا معًا، حسبما أشيع، إلى بلاط قشتالة، أما بالنسبة لفالنغا (الذي كان الشخص الثاني الذي سألت عنه إيزابيل، وإن كان ببعض الخجل والحرج)، فلم تتردد المرأة في إجابتها على الفور بأنه قد مات في ذلك الحادث، بسبب خطئه وليس بسبب غيره، لقد اندفع بعنف على نصل الفأس، مما تسبب في إصابته بجروح قاتلة، وهكذا جرحت، كما كانت تتوقع، قلب الفتاة التعساء، لكن أرلجا كانت تعلم أن إيزابيل لم يكن لديها وقت لتحب خطيبها المستقبلي، وأن الشعور الذي كانت تُظهره لوفاته المبكرة كان ينشأ أكثر مِن الشفقة منه من الحب، وأنه سيهدأ قريبًا، لذلك، فضلت المرأة الماكرة قطع العقد بضربة واحدة بدلًا من حلها بعناية، وبذلك حرمت إيزابيل حتى من آخر شعَاع من الأمل.

طوال فترة نقاهة إيزابيل، لم يظهر أبو الفرج أمامها قط، فقد كان مشغولًا بأمور أخرى، يتنقل من مكان إلى آخر، ويستعد للدفاع عن الحدود، ضد أي هجوم محتمَل، كان يأتي فقط من حين لآخر، وكأنه يمر مرورًا عابرًا، ليسأل عن صحة الأسيرة، ويرتب الأمور اللازمة، لكنه كان ينادي أرلجا سرًا، ويتحدث معها لبضع لحظات، ثم يعود بالسرعة نفسها التي جاء بها، ولكن ذات يوم، وصل أبو الفرج في وقت متأخر من الليل، كان حائرًا، كأنه يقلب في ذهنه بعض الخطط، وفي كلمات قليلة، أخبر المَرأة أنه قد تلقَّى أمرًا من الملك بالحضور إلى غرناطة، ولذلك كان من الضروري أن تستعد هي لمرافقته، حاملةً معها الأسيرة، سمعت أرلجا النبأ غير المتوقع، وكأنها تنتظر أن ترى وطنها وعائلتها، التي بكتها في السابق، وقد قفز الفرح في صدرها، وشكلت وجهها وكلماتها لتطمئن قلب إيزابيل، حتى لا يصيبه هذا الخبر بالصدمة، بل وتتركها تتخيل أن السماء ربما تفتح لها تلك الطريق لتحويل أحزانها إلى أفراح.

قالت أرلجا لإيزابيل، من بين أمور أخرى:

«لن تزي نفسك هناك كما رأيت نفسي في بلادك، بعد أيام قليلة من أسري، وقد قيدت قدمي بالحديد، وطبعت على جبيني علامة الحديد، انظري إليّ، يا ابنتي، انظري إليّ، فحتى الآن يحمر وجهي من الغضب والخجل! لقد ولدت نبيلة وثرية، وكنت في مقتبل العمر، وكان أجمل شباب غرناطة يطاردونني بحثًا عن الحب، ليس لدي شكوى من الكونت دي كابر، فقد عاملني بإنسانية، وإن لم يكن بحب، ولن أنسى أبدًا الضيافة الجيدة التي وجدتها في منزلك، ولكن الله الرحيم يكافئ بسخاء على الخير الذي يُصنع للآخرين، والمساعدات التي تُقدم للمحتاجين ليست مثل البذور التي تزرع في الرمال، ستعيشين في منزلي الخاص يا ابنتي، وسنُعاملين كما لو كنتِ واحدة منا، فليس لديّ في تلك المدينة من ينقصني من أصحاب الثراء والنفوذ، وإذا لم يخدعني قلبي (الذي أفتخر بامتلاكه مخلصًا، وإن كان ذلك قد كلفني في كثير من الأحيان أضعاف الآلام) فلن يُسيء إلى سمعتك اسم الأسيرة، وهناك حيث تخشين الكسر، ربما تنتظرك السعادة، فإن ذلك سيحدث إذا كان مكتوبًا.»

كانت كلمات أرلجا مليئة بالأمل والتفاؤل، وكانت تأمل أن تطمئن قلب إيزابيل، وتساعدها على التغلب على آلامها وصدمات الماضي.

استمعت إيزابيل إلى أرلجا، متفاجئةً ومتعجبةً، دون أن تُظهر أيَّة علامةٍ من الحزن أو الفرح، ولم تفتح شفتيها حتى، ولكن عندما خلدت إلى النوم تلك الليلة، بعد أن بذلت جهودًا عبثيةً لتهدئة أعصابها، بدأ عقلها يفكر في أمورٍ كثيرةٍ، دون أن تتمكَّن من السيطرة عليه، وتذكرتْ ما كانت قد سمعته كثيرًا منذ طفولتها عن جمال غرناطة، وآمنت أنَّها قد تجدُ هناك فرصةً أسهل لاستعادة حريتها، فهدأت في النهاية، ولم تكن نائمةً تمامًا، ولم تكن مستيقظةً تمامًا، ولكنها كانت أكثر هدوءًا، وإن لم تكن أكثر سعادةً.

لا يبدو إلا أنَّ نجمة إيزابيل كانت تُحكم عليها بأن تنظر إلى أحداث حياتها كما لو كانت أحلامًا، فقد كانت أحداث حياتها غريبةً جدًا، ففي الليلة الأولى لها في الأسر، لم تتمكن من النوم إلا قليلًا بسبب تعب الطريق وبرد الصباح.

***

الفصل الخامس

الاحتفال بحفلة الزفاف

ما أن وصل أبو الفرج إلى غرناطة حتى سارع إلى تقديم نفسه للملك، حيث حالفه الحظ وقابل الملك فجأة عند دخوله إلى القصر، كان أبو الفرج يثق في طيبة قلب الملك عبد الحميد، التي كانت تكاد تصل إلى الضعف، ولم يشك في أن الملك، حتى لو كان متضايقًا وغاضبًا، كما ظهر في البداية، فإن غضبه سيخفف مع مرور الوقت، ولن ينفجر عندما يراه.

حدث ما توقَّعه أبو الفرج تمامًا، ما أن رأى الملك حتى قفز من على حصانه وخرَّ على قدميه لتقبيل طرف ثوبه في علامة على الاحترام، ورفعه الملك عبد الحميد على الفور، وكان مترددًا بين الصرامة واللطف، فأشار له بحركة خفيفة أن يتبعه، ولم يتحدث معه الملك بكلمة واحدة في أثناء عبورهم الأفنية، ولكن بمجرد وصوله إلى الغرفة الأولى، أمر حاشيته أن تتركهم وحدهم.

لم يعطِ أبو الفرج الملك الفرصة ليلومه على سلوكه، أو حتى يُبدِيَ له أي تذمُّر، كما لو أن شوكة كانت تؤلمه في قلبه حتى يشرح له سلوكه، كان قلقًا للغاية من أن يفهم الملك سبب تصرفه، فبدأ يشرح له سريعًا، مشددًا على خبث القشتاليين ووقاحتهم، وإهاناتهم المستمرة، والأضرار التي لحقت بالحدود، والسرقات، والحرائق، والقتل، وأكد أن هذه التصرفات ستؤدي إلى المزيد مِن الفساد والتجاوزات، إذا لم يوقفها أحد، وختم حديثه قائلًا: «لقد مر شهران منذ أن انتقمت من الإهانة التي ارتكبت ضد شعبك، وهؤلاء الملوك القشتاليون، الذين كانوا مغرورين بقوتهم، الذين تجرَّأوا في بداية حكمك على طلب الجزية منك، مثل خادم وضيع، لم يجرءوا الآن على الخروج للمطالبة بها، بل أخفوها في صدورهم.»

تنحنح أبو الفرج، ثم قال للملك عبد الحميد: «سيدي، لا أملك سوى حياتي لأقدمها لك، إنها ملكك، وسأضحي بها بكل سرور في دفاعك، ولكن، حتى تتأكد يا ملكي العظيم، أنني لم أهاجم القلعة لسبب تافه أو مصلحة دنيئة، بل دفاعًا عن شرفك،

سأقدم لك كنزًا لا يقدر بثمن، إنها أجمل وأذكى امرأة في العالم، ابنة القائد القشتالي الذي كنت أقاتله جميعهم يمدحون إلى السماء جمال وقدرات الأسيرة، ابنة القائد نفسه، وأنا، رغم أنني إفريقي قاسٍ، لا يمكنني تقدير جوهرة بهذه القيمة، سأتجرأ على القول، إذا كنت تسمح لي بذلك، إنها جوهرة جديرة بملكك.»

تلقى الملك عبد الحميد الهدية المميتة، غير مدرك للخطر الذي كان يهدده، لا هو ولا مملكته، وفور أن تذكر الجمال الذي سمع به عن تلك المسيحية، عندما استولى على القلعة، جدد شكره على الهدية الكريمة وبعد أن وصل إلى منزله، دعَا أرلجا، وتحدّث معها على انفراد، وبدأ إخبارها، ولكن فقط بما يخدم مصالحه، بما حدث له للتو مع الملك، ثم أظهر لها بعد ذلك، وكأنه بالصدفة، أن أبواب الحظ قد فتحت على مصراعيها، ليس فقط لإيزابيل، ولكن أيضًا لها، وتركها تتخيل النعمة التي يمكن أن تحظى بها والمكافأة التي تنتظرها.

غادر أبو الفرج، وما زالت أصوات حوافر حصانه تُسمع، عندما ركضت المرأة المسلمة إلى حيث كانت إيزابيل وصديقاتها، وهي تصرخ من الباب: «أبشري يا ابنتي بخبرٍ سارٍ، لقد اختارك الملك الأقوى في الأرض وينتظرك، ستعيشين في قصره، في تلك الدار الساحرة التي أذهلتك مراتٍ عديدة وأشعلت في قلبك الرغبة، ولعل ابنة أحشائي، التي كانت تدين لي بحياتها، ستصبح ربما مجد غرناطة وحسد العالم».

صرخت أرلجا في وجه إيزابيل، التي لم ترد عليها بكلمة واحدة، بل بقيت تبكي بصمت، فازدادت أرلجا في مداعبتها، لكن ذلك لم يُخفِّف حزنها، بل زاد من شدته، وعندما رأت ذلك، أشارت أرلجا إلى شقيقاتها لكي يحاوِلْن تسلية إيزابيل، وتركتها وحدها معهن.

***

الفصل السادس

إيزابيل في غرناطة

في الصباح الباكر من اليوم التالي، ظهرت إيزابيل أمام أرلجا، تعبيرها جاد ووجهها حزين، كانت أكثر من كونها راضية، بل مستسلمة، لم تُبدِ أي فضول لمعرفة أي شيء، ولم تُجب عمَّا قيل لها إلا بإجابات قصيرة جدًا أدركت أرلجا، المرأة الذكية والمتيقظة، أن إيزابيل لم تكن سعيدة بهذا الزواج، لذلك، قررت عدم إزعاجها أو الضغط عليها، حتى ولو بحب، حاولت بدلًا من ذلك أن تجد طريقة لجعلها تشعر بتحسن، وهكذا، طلبت من شقيقاتها أن يتحدثن معها عن الحمراء وجمالها، كانت تأمل أن تجذب انتباه إيزابيل وتُشغِل ذهنها.

بدأت إيزابيل تشعر بتحسن تدريجي، مثل الصباح الذي بدأ ضبابًا مع سحب خفيفة، ثم أصبحِ أحد أكثر الصباحات هدوءًا في مايو، كانت السماء صافية، والهواء معتدلًا، والأرض منعشة وذات رائحة طيبة بسبب المطر الأخير، وبعد أن قضت إيزابيل بضع ساعات في الحديقة، بدأت النساء المسلمات عرض ملابس وزينةً وقلائد عليها، حتى تختار بنفسها ما يناسبها، تركتها الفتاة مأخوذة بالإعجاب، مُعجبة ببعض الزينة، وتترك أخرى، تحاول معرفة أي منها يناسبها بشكلٍ أفضل، وبعد أن وَضعت على رأسها، ليس دون أناقة، عمامة بيضاء وقرمزية، وثبتت شالًا رقيقًا، بدَا وكأنه مُتجمِّد مِن رقائق الثلج الصغيرة وغطى أكتافها وظهرها، زينت صدرها بقلائد غنية من المرجان والعنبر، ونظرت في النافورة، وهي مفتونة بنفسها لدرجة أنها كادت تنسى أحزانها.

أشعلت كلمات المديح مِن صديقاتها ومجاملات أرلجا قلب إيزابيل، حتى إنها كادت تنسى حزنها، ولكن سرعان ما عاد الحزن إلى قلبها عندما سمعت صوت أبو الفرج من بعيد، لقد حان الوقت الذي كانت تخشاه كثيرًا، وقت الزواج من أمير عربي، ظهر الملك أمام أرلجا والفتيات، اللائي غطين وجوههن بأغطيتهن، اقترب مِن إيزابيل وتحدث إليها بلطف: «لا تخافي -أيتها المسيحية الجميلة- مِن معاملتي لك، لم أتحدث إليك حتى الآن، حتى لأثني على جمالك، الذي ربما لا يعرفه أحد في

العالم غيري، اليوم أتحدث إليك لأول مرة، وهو لإعلامك بأخبار جيدة، سأتركك في جنة الأرض، داخل قصر ملك سيقدرك حق قدرك.»

كانت إيزابيل متمسّكة بذراع أرلجا، غير قادرة على التخلي عنها، ولكن أرلجا، التي لم ترغب في إضاعة أي لحظة، عانقت بنات أختها، وتبادلن دموع الحزن ووعود اللقاء مرة أخرى قريبًا، وبعد انتهاء الوداع الحزين، خرجت أرلجا من المنزل، تحمل إيزابيل إلى جانبها، وتبعتها بعد مسافة قصيرة ابن فرج وبعض العبيد السود، كان هدفهم هو الوصول إلى الحمراء عبر أقصر طريق وأكثره عزلة، لذا سارعوا للخروج من المدينة، ونزلوا على جانبي التلال حتى وصلوا إلى ضفاف نهر دارو، عبروا النهر الضيق عبر جسر خشبي، ثم بدءوا الصعود على طول مسار وَعر، كان المسار متنوعًا وممتعًا للغاية فهناك حدائق مليئة بالزهور على طول الصخور، وشلالات ومنحدرات وأبراج شاهقة في السماء، والنهر في الأسفل، من خلال فتحة ضيقة في الصخور، شقّوا طريقهم إلى سهل هادئ، مختلف تمامًا عن الطريق الوعرة الذي اجتازوه مؤخرًا، بدا قصر الجنراليف(6) والحدائق المحيطة به كلوحة فنية من بعيد، أخذوا استراحة قصيرة بعد رحلتهم الشاقة، ثم اتجهوا يمينًا، وواصلوا مسيرهم عبر غابة كثيفة.

Telegram:@mbooks90

مشهد طبيعي خلّاب لفت أنظارهم، أشجار ضخمة وأشجار بلوط جميلة في أزيائها الجديدة، طيور تغرد مرحبة بعودة الربيع، زهور غطت الأرض، جداول تتدفق بين الصخور، كل هذا أبدع لوحة فنية رائعة، لم يَشُبها أي تدخل بشري، فكر عظيم، لا يُصدق! ترك الطبيعة تتباهى بسحرها البسيط، وسط قصرين فاخرين، الجنراليف والحمراء، دخلوا قصر الملك من البوابة الرئيسية، حيث لفت نظرهم نَقْش يد في القوس الأولى، ومفتاح في القوس التالية، كأنها تشير إلى أن هذه الأشياء لن تجتمع أبدًا، أو أن تسليم المدينة لن يحدث أبدًا، (رمز متعجرف) بعد بضع خطوات، رأوا قصر الملك.

في أجمل فناء في القلعة، كان الملك يستقبل ابن فرج والأسيرة الجميلة، في فناء القلعة الأجمل، استقبل الملك ابن فرج والأسيرة الجميلة، تراجع حشد النبلاء

خشية أن يروا جمال إيزابيل، دخل ابن فرج الغرفة، تبعته أرلجا، تقدمت منها إيزابيل بخجل وتحفظ، ونظراتها لا ترتفع عن الأرض، وجهها كان مضيئًا، ثم أصبح شاحبًا وباهتًا، سحر جمال إيزابيل الملك، حتى إنه لم يسمع ما قاله ابن فرج، كما سحر جمالها الجميع، فبدءوا يطلقون عليها اسم «ثريا»، اسم يُطلَق على ضوء الصباح، كانت إيزابيل جميلة نادرة، لا مَثيل لها على الأرض.

ما أن بدأ الملك يَفيق مِن سحره بجمال إيزابيل، حتى اقترب منه الأفريقي الماكر مرة أخرى، همس في أذنه، خوفًا مِن ردة فعل الملك، يسأله إن كان قد قدَّم له هدية تستحق إعجابه، لم يتردد الملك في الرد، بل أجاب بسرعة وحماسة، كاشفًا عن مدى تعلقه بإيزابيل، تأكد الأفريقي من وقوعه في الفخ، فطلب من الملك الإذن بمغادرة غرناطة خلال ساعات قليلة، لكنه طلب أيضًا، كآخر خدمة، السماح لإيزابيل بالبقاء معه لبضعة أيام كإقامة أولى لها، حتى «تعتاد الحمامة البريئة على الطيران دون خوف في نطاقِ القصر»، كان الملك على استعداد لمنح أي شيء لإيزابيل، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن نصف مملكته، كان سعيدًا للغاية بمَنح هذه الهدية الصغيرة، التي شعر أنها كانت مهمة جدًّا لإيزابيل.

***

الفصل السابع
ليلة الاضطرابات

في لحظة عابِرة، تناهَت إلى مَسامع سكان القصر أخبار أسيرة جميلة أسرها الملك، وباتت حديث الجميع، سرعان ما ذاع صيتها في أرجاء المملكة، فملأ قلوب الناس إعجابًا واهتمامًا، بل وحسدًا من بعضهم، هُنئ الملك على حظه، واتَّجهت الأنظار نَحو الشمس المُشرِقة تعبيرًا عن الفرحة، وربما شاء القدر أن تغيب زوجة ابن فرج عن الحمراء في ذلك الوقت، تلك المرأة القوية ذات النسب العريق، التي حاولت التكيف مع حياتها الجديدة كزوجةٍ للملك، لكنها اكتشفت أن الزواج لم يُغير من طبيعتها، وأن مصلحة الدولة لا تُغني عن الحب الحقيقي.

عائشة، ملكة غرناطة، لم تكن امرأة عادية، تميَّزت بقوة شخصيتها وشجاعتها، وذكائها الحاد الذي لا يضاهَى، وبينما اتَّسمت ملامحها الجميلة بصلابة وحَزم، كان ذلك مصدر إزعاج لزوجها الملك، الذي عانى من ضعف الشخصية وتقلب المزاج، فقد انشغل الملك باللذات والمغامرات، تاركًا وراءه سلوكًا فاسدًا أثار سخط شعبه، على عكسه، عرفت عائشة بالشرف والكرم، حافظت على سلوكها المتزن واكتسبت احترام الجميع، لم تُعانِ من الغيرة من تصرفات زوجها السيئة، لكن شعورها بالإهانة كان يزداد كلما ازدادت معاملته السيئة لها أو إظهار نفوره، أما الملك، فكان الغيرة تملأ قلبه تجاه عائشة، مدركًا تفوقها عليه في كل شيء.

كانت أسباب الانقسام بين الملكة عائشة وزوجها الملك قوية بحد ذاتها، لكن انضمت إليها أسباب أخرى، ربما لا تقل خطورة، حيث كانت القبيلتان المتنافستان، بني نصر وبني زغران، تثيران نار الخلاف من الخارج، كان الملك مُقرَّبًا مِن بني نَصر، التي كانت من أقوى القبائل في غرناطة وأغناها، وربما كان يشعُر بالغيرة مِن عائشة لأنها كانت تفضِّل بني زغران، ازدادَت حدة الخلاف عندما عين الملك، زعيم بني نصر، حاكمًا للمدينة، وهي رتبة رفيعة جدًا، من جانبها، حرصت الملكة على تحقيق رغبات أقاربها وأصدقائها، وبينما كانت صحة ابنها (عبد الله أو بوعبد الله، المعروف بالاسم الأخير) تتدهور بسبب قسوة الشتاء، طلبت من الملك أن يسمح لها بأخذه

لبضعة أشهر إلى قصرها الخاص، الذي يقع في مكان أعلى من الحمراء ويتمتع بهواء نقي ورقيق، إذ كان موجودًا على قمة جبل الشمس، بعيدًا عن الجنراليف، كان يُسمى القصر دار العروس، لأن الملك نفسه أهداه للملكة كجزء مِن مهرها في ليلة زفافها، كانت الملكة تعيش في هذا الانفصال والانعزال، مُحاطة بأقرب أقاربها، تُثير بمصيبتها شفقة الشعب، وتُشعِل بشكل مستتر نوايا أنصارها، عندما ظهرت الجميلة إيزابيل في قصر الحمراء.

الفصل الثامن
سحر المرأة المسيحية يهدد بإشعال
نار الحب في قلب الملك

لم يكتفِ الجميع بإطراء شغف الملك بجمال إيزابيل المسيحية، بل تنافسوا في وصف تفاصيل سلوكها وكلماتها، حتى إيماءاتها الدقيقة، بعبارات لم يسمعها الملك عن أي امرأة أخرى سوى عن إيزابيل حتى عندما لم تكن موجودة في حضرته.

اكتسبت أرلجا، خادمة إيزابيل، مكانةً عظيمة بسبب التأثير الذي نُسِب إليها على روح الفتاة، بينما وجدت إيزابيل نفسها، بعد بضعة أيام، مُنسَجِمة مع محيطها الجديد، وكأنها في عالم آخر، لدرجة أنها نسيت أسرها تمامًا، صحيح أن شيئًا لم يُذكِّرها بحالتها الحزينة، فقد سعى الجميع لإرضاء رغباتها، ولم تسمع سوى عبارات الثناء، وكل ما حولها، وكل ما كانت تراه، زاد من اغترابها وسحرها من روعة القصر وجمال حدائقه، زاد من شعورها بالانسجام والسحر.

كان القصر تحفة معمارية لا مَثيل له في العالم، بأرضياته الرخامية من غرناطة، أكثر بياضًا من الثلج، وجدرانه من القرميد والزخرفة الغنية على الطريقة الفارسية، وأسقفه من خشب الأرز المرصعة بالصدف والذهب والمينا بألوان زاهية، ونوافذه المصنوعة بدقة فائقة مثل الفيلغراني(7) من قرطبة، تُزين القصر من الداخل والخارج زخارف رائعة تشبه الشرق، ففي كل مَكان، تنتشر الأقواس والنقوش والأعمدة الرشيقة التي تشبه جذوع النخيل، بينما زينت الساحات النافورات والبرك والحدائق الأشجار والزهور، حتى في القاعات الداخلية، تتدفق وتنزلق الجداول البلورية مُعبِّقة الهواء برائحة الشرق، ترتفع هذه الرائحة على شكل سحابة خفيفة من خلال فتحات التنفس، وحمامات من العقيق، وأصداء الموسيقى تُصدر صوتًا من بعيد، حتى الجدران الغامضة كانت تُشارك أسرار الحب مع محبيها، وتُخفيها عن غير المتحتشمين، حتى لو كانوا حاضرين، كل شيء قدم لإيزابيل قصرًا ساحرًا، لا يمكن حتى أن يخطر في خيالها الجامح عن العرب.

لم يزل سحر المنظر من عيني الفتاة الجميلة بينما كانت تُطلّ من النوافذ والشرفات، كان الجزء من القصر الذي يسكنه الملك في ذلك الوقت هو مسكن الصيف، المُطلّ على الشمال، مع إطلالات خلابة على نهر دورا، كشفت واجهة المبنى عن جزء من المدينة، التي كانت ترتفع بشكل مَهيب على شكل مدرج، من ضفة النهر نفسها إلى قمم جبل البيضاء وقلعة الحمراء، على اليمين، تسيطر على المرتفعات، قصور جنة العريف ودار الحمراء، عند سفح تلك القلاع، على المنحدرين، (وكأنها تنزل لتضييق مجرى التيار الهادئ) تنتشر ألف حديقة ساحرة وكانت تسمى «كارمن»(8)، مليئة بأشجار البندق واللوز وجميع أنواع الأشجار والزهور والبساتين.

إلى الجهة الجنوبية، كحارسٍ أمينٍ للمدينة، برزت قمم سييرا نيفادا شامخة، مُكللةً بثوبها الأبيض من الثلوج حتى في ذروة الصيف عند سفحها، امتدت سهول غرناطة الخلابة على مساحة أميال، كسجادةٍ غنيةٍ بألوانها المتنوعة، مقسّمة إلى ألف مربع بألوان مُختلفة مُحاطةً بإطارٍ أخضرٍ من الخضرة، وفي قلب تلك السهول انساب نهر شَنيل(9) العظيم، مُلتقيًا بنهر دورا عند بوابات المدينة، ليضمّه إلى حضنه ويُكمل رحلته نحو نهر الوادي الكبير، أمضت إيزابيل ساعاتٍ طويلةً تُمتع ناظريها بجمال هذا المنظر الفريد، حيث الأبراج والقلاع والجدران تُحيط بها من كل جانب، والتلال تُغطّى بالحدائق والمنازل، والمدينة تُنتشر على السهل الواسع.

تُطلّ جبال أباهو بِحُلّة حمراء عارية، بينما تنتشر الجبال البيضاء في الأفق، وتَنساب مياه النهر هادئة، تُخفي القرى والبلدات والمدن ملامحها خلف الأفق البعيد، هتفت إيزابيل بإعجابٍ لا يُوصف: «لا عجب أن يُلقّبكِ الناس، يا غرناطة، بالجنة الجديدة!»

تضافرت جميع العوامل لتزيد مِن لهيب حبّ الملك بو الحسن للمرأة المسيحية، فكان جمالها فاتنًا، وسحرها وتعويذاتها تأسر الروح، حتى صوتها، وإن لم يكن من أجمل الأصوات، كان له لمسة ناعمة ودافئة تخترق أعماق القلب دون شعور، كان من الصعب على أي شخص مقاومة سحرها، فما بالك بالملك الذي كان بطبيعته حنونًا وعاطفيًا، فمع عدم وجود أي عوائق أو حدود لرغباته، وقع في حالة من الاكتئاب

والحزن الشديد، لدرجة أنه أصبح يرى الحياة بلا قيمة.

لأول مرة الآن، بعد سنوات عديدة عادت مشاعر الحب لتنبض في قلب الملك بو الحسن، كما لو كان في ريعان شبابه، استسلم لشغفه الجديد بكل ما فيه من رغبة، مُقتنعًا أن هذا الحب هو الأخير، فكما تبدو أيام الخريف الأخيرة أكثر جمالًا قبل حلول الشتاء، هكذا بدا حبّه لإيزابيل.

منعته طيبته وربما شغفه نفسه من إجبار إيزابيل على الرضوخ لرغباته، لم يكن يرغب في امتلاكها كأنه يذبح ضحية، بل كان بحاجة إلى مَن تحبه، من تُشعِره بالخوف والأمل في آن واحد، من تجعله يتذوق طعم التغلب على العقبات.

لم يكُن هَمه الحصول على حب إيزابيل بفَضل قوّته أو خوفها، بل كان يسعى لنيله بفضل استحقاقه الخاص، على الرغم من تقدُّمه في السن وعدم امتلاكه لجمالٍ فاتن، إلا أنه كان يتمتع بحضور مَهيب ووجه جادٍّ وهادئ، حتى في نظرة عينيه الحزينة والنائمة بدا وكأنّ شغفه يفيض.

لذلك لم يعتقد أنه من المستحيل الفوز بقلب إيزابيل، التي كان يتوق إلى حبها، كان متأكدًا من أنها لم تُحِب أي رجل من قبل، وكان يأمل أن تُثمِر هداياه المستمرة وامتِنَانِه وشدة شغفه في النهاية عن الفوز بها.

كان الملك في سعيِه لإسعاد إيزابيل لا يُغفل أي شيء قد يُدخل البهجة إلى قلبها، فما إن تُشرق شمسُ الصباح حتى تُقدم لها على أطباقٍ فاخرةٍ أطيبُ أنواعِ الفواكهِ من حدائقِ الملكِ، نديّةً كأنّها قطراتِ الندى، مُغطاةً بأوراقٍ خضراءَ نضرةٍ، وعندما تتجه إلى الحمام، تجده مُجهزًا بالعطور والروائح العطرية التي تُضفي على الروح والحواس شعورًا بالنشوة اللذيذة، وعندما تعود إلى غرفتها، يكون قد خمّن رغباتها حتى أدقها.

أينما كانت إيزابيل، وإلى أي مكان اتجهت، سبقها كرم الملك ليترك في كل مكان أثرًا لحبه، كان الملك يتبعها كظلٍ حنون، يُغطيها بظله ويُسهل لها مسارها، ونادرًا ما كان يظهر أمامها، مُفضلًا أن يُعبّر عن حبه من خلال أفعاله.

لم تكن إيزابيل قد وقعت في حب الملك بعد، لكنها كانت تنظر إليه بمحبة، فبفضل طبيعتها الطيبة، وبعد أن عاينت وجه البلاء عن قرب، لم تتمكن من تجربة شعور آخر غير شعور المودة والامتنان تجاه مولاها، كان شعورًا مختلفًا عن الحب، لكنه لم يكن بعيدًا عنه، وحتى الغرور والكبرياء، اللذان كان لهما تأثير كبير على قلب الفتاة، جعلاها تميل أكثر فأكثر إلى الملك الذي قدم لها انتصارًا مُبهجًا.

الفصل التاسع

هجوم غامض

على إيزابيل وصديقتها

لم تترك إيزابيل عادتها في النزول مع صديقتها المُخلِصة أرلجا إلى تلك الحديقة الساحرة، تقع هذه الحديقة على المنحدر الذي ينزل من القصر إلى نهر داورو، عند سفح البرج المعروف اليوم باسم «مُصفّى الملكة».

تُغرِي كثافة الأشجار وهدوء المكان بقضاء بعض الوقت هناك، خاصةً مع تميز ضفاف النهر بِخاصيةٍ فريدةٍ تُعيد للصحة والقوة دون أي تأثير سلبي لِبرودة الجو أو رطوبة النهر القريب، استمعت إيزابيل باهتمام إلى رومانسية تُغني في مدحها بنبرة هادئة وحزينة، لا تزال موجودة حتى اليوم في بعض ألحان الأندلس، ساد الصمت لفترة طويلة، وكأنَّ رغبةً في الحب بدأت تتسلل إلى قلب إيزابيل، بقيت أرلجا بجانبها دون إصدار أي صوت، حتى غلبها النوم تدريجيًا.

فجأة، سمعت إيزابيل صوتًا خافتًا في العشب القريب، التفتت برأسها مذعورة، ونادت بصوت خافت على صديقتها التي استيقظت مُرتَجفة، بينما كانت كلتاهما على وشك النهوض والهرب، لاحظتا اقتراب أشخاص طوال القامة بلون الأرض، هجموا عليهما فجأة دون أن ينبسوا ببنت شفة، وضمّوهما بذراعيهما، وغطّوا رأسيهما بِعباءة لمنعهم من الصراخ.

جرّوا الضحيتين على الأرض حتى بلغوا فوهة كهفٍ عميق، ونزلوا بهما لفترةٍ طويلةٍ، كأنهم يُريدون دفنهما في قلب الأرض، لاحظت أرلجا بعد ذلك (بينما كانت إيزابيل الضعيفة فاقدةً للوعي) أنهم يُقادون عبر ممرٍ ضيقٍ لا يسمح بمرور أكثر من شخصين معًا، ومع كثرة المنعطفات والالتواءات، تعذّر تحديد مكانهم، تأكدت فقط من خلال الشعور بالبرودة القاسية وثقل الهواء أنهم يسيرون في طريقٍ تحت الأرض لم تصل إليه أشعة الشمس قط.

ما لم تتمكن من فهمه (وهو أمرٌ صعبٌ، حتى لو لم تكن خائفةً) هو كيف استغرقت

ساعاتٌ طويلةٌ في المشي دون الوصول إلى وجهتهم، بدا الخاطفون الذين يقودونهم مُتعبين بالفعل، وكان بإمكانها سماع أنفاسهم الثقيلة وكأنهم يفتقرون إلى الهواء، أما بالنسبة لإيزابيل، فلم تُفلح كلُّ مساعيهم، من إهانات وتهديدات، في تحريكها قيد أنملة، فبلغت قَسوة القتلة حدّ طعنها بالخناجر في نوبة غضبٍ عارم.

استعادت المسكينة وعيها وأطلقت صرخةً حادةً ترددت في تلك الأقبية العميقة، حاولت التخلص من الأذرع التي تُمسكها، وظلت تصارع وتقاوم لفترةٍ طويلةٍ حتى ألقوها كجثةٍ عند مخرج النفق، كان الفجر قد بزغ بالفعل، وبمجرد أن شعرت أرلجا ببرودة الصباح وشكّت في وجودها في الخارج، خلعت العباءة التي كانت تغطيها وبدأت تصرخ باسم الله.

هرع الجلادون الذين كانوا يحرسونهم، وكانوا على وشك إتمام جريمتهم، ولكن في اللحظة نفسها، وكأنها بإذنٍ من السماء، رأوا شيخًا جليلًا عند باب كهفٍ، كان مظهره ووقفته -كأنهما يمثلان صورة لنبي: «ماذا تفعلون أيها القتلة؟ توقفوا! إنّ النصر من عند الله، وملاك الموت يتربص بالمجرمين.»

لم تكد كلمات الشيخ تُطلق حتى سقط القتلة كأنّ صاعقةً هبطت على أقدامهم، وعندما سمعوا تلك الأصوات وتعرفوا إلى لهجته، غمرهم الخوف وفرّوا عبر الحقول، سجد الشيخ بعد ذلك، ووجهه نحو الشرق، وبدأ تلاوة الأذكار(10) بِحماسة واندفاعٍ كبيرين، حتى إنّ أصداء الجبال لم تُردّد سوى اسم الله، «الله وحده هو الكبير، الله وحده هو القوي، لا إله إلا الله».

حينما اشتدّت وطأة الأحداث، هرعت أرلجا المُخلصة لنجدة إيزابيل، فخلعت عنها ثيابها وعاينت جروحها، التي كانت سطحيةً في غالبيتها ومتركزةً في ذراعها، كأنّ غريزةً أموميةً دفعتها لحمايتها بجسدها، ولكن عندما بدأت إيزابيل تستعيد أنفاسها، واعتقدت أرلجا أنّ ابنتها قد نجت مِن الخطر، انتابها شعورٌ مفاجئٌ بالقلق، فصرخت صرخةً مدويةً عندما أدركت من تخثر الدم ولونه أنّ أطراف الخناجر كانت مَسمومةً، ولم تتردّد أرلجا لحظةً في وضع شفتيها على الجروح، مُخاطرةً بحياتها لإنقاذ ابنتها، ثمّ نظرت حولها فوجدت شجيرة رُتَم(11)، فاقتلعها وعصرت عصيرها ورمت السمّ

خارج الجروح.

وكان الكهف الذي اختاره الفقيه الورع لملاذه هو الأكثر اتساعًا وعمقًا بين جميع كهوف تلك المنطقة، وقد تشكلت في الصخور بفعل تآكل الماء، وكانت تحتوي على بلورات بأشكالٍ غريبةٍ ومتنوعة، مثل الأقواس والقباب والأعمدة، بحيث كانت تُوحي للخيال، عند انعكاس الضوء الخافت عليها، بوجود معبدٍ ضخمٍ فخمٍ خلّقته الطبيعة لعبادة الإله.

***

الفصل العاشر

اكتشاف مؤامرة السلطانة عائشة

مع حلول منتصف الليل، ازداد قلق الجواري المُنتظرات لإيزابيل في الفناء المجاور الذي اسمه «حديقة ليناراخا»، لم تُظهر أيٌ منهنّ خوفها علنًا، ولم تتجرأ على تخطي حدود المكان المسموح به، ولكنّ مرور الساعات دون عودة إيزابيل زاد من حدة الهمسات حول احتمال تعرضها لمكروه، وبينما كانت كلٌّ منهنّ تُريدُ أن تبدو أكثرَ حرصًا واهتمامًا، هرعنَ جميعًا لإبلاغِ الخبرِ الغريبِ الذي لاحظنَه.

لم يجرؤ أحد على إبلاغ الملك بو الحسن بالخبر المُفاجئ، لكنّ سرعة انتشار الشائعة جعلته يصل إلى مسامعه دون تأخير، فنهض الملك من فراشه حاملًا سلاحه، مُتأرجحًا بين مشاعر الشك والقلق، وخرج من غرفته لمعرفة سبب هذه الضجة المُثيرة، وفجأة، تجمّد مكانه كأنّه تمثال من رخام، ثم انفجر غضبه مُطلقًا صيحات مدويةً من شدة الألم والغضب، حتى إنّ صوته بدا أشبه بزئير الأسد منه بصوت إنسان.

كان أول ما خطر على بال الملك أنّ إيزابيل هي من خطّطت لهروبها للعودة إلى بلاد النصارَى، لكنّه تساءل من يا تُرى ساعدها في تنفيذ خطتها؟ كانت أرلجا هي الوحيدة التي تُشاركها أسرارها، وصديقتها المُخلصة، والتحكم في إرادتها، كان من المُستَبعَد تقريبًا أن تُقدم أرلجا على مثل هذه الخطوة المُتهوِّرة، وأن تُغادر مُتخليةً عن كلّ ما حققته من رفاهية وثروة، وعن قمة آمالها، لتُعرِّض نفسها للعديد من المخاطر، وربما تعود لسجنها السابق.

كان بو الحسن مُلمًّا تمامًا بشخصية عائشة، ويُدرك أنّها الوحيدة في جميع أنحاء المملكة التي تُقدم على توجيه مثل هذه الضربة القاتلة له، لم يُراود الملك الشك لحظةً أنّها من دبّرت هذه الخطة، فغلب عليه الغضب عند مجرد الشك، وبدأ يفتّش ممرات متاهة القصر بجنون، ليجد آثارًا وأقدامًا، وبوابة حديدية مغلقة بشكلٍ غير مُحكم، نادى الملك خدمَه، فهرعوا خلفه واحدًا تلو الآخر في ذلك الطريق المُجهول،

عند مدخل المغارة، انتظر الملك بفارغ الصبر، مُكرّرًا أسئلته وتحذيراته وتهديداته، سيُراق دماء كثيرة في غرناطة إذا لم تظهر الأسيرة، عاد أحد العبيد سريعًا، بالكاد يُمكنه التنفس، طرح عليه الملك ألف سؤال، لكنّه بالكاد أجاب، خوفًا واحترامًا، لكن في النهاية، تمكّن الملك من فهم بعض كلماته المُبعثرة.

لمّا تناهى إلى مسامع الملك بو الحسن نبأ اختفاء إيزابيل، هرع مسرعًا إلى ضفة النهر، حيث يُفضي الممر السري إلى مغارة، في زمنٍ قياسيٍّ لم يُمكن حاشيته من مواكبة سرعته، وعندما وصل كان لا يزال مُترددًا بين الخوف والأمل وعندما تأكد من عدم العثور على إيزابيل، اشتد غضبه بشكلٍ مُخيف حتى إنّ جميع من حوله خافوا على حياتهم، انطلق جميع من رافق الملك، والذين لحقوا به لاحقًا، في جبال ألفاكر بحثًا عن الأسيرة الجميلة، بينما بقي بو الحسن ينتظر عند مخرج الممر السري، مُتلهّفًا لرؤيتها، مُميلًا جسده ومُصغيًا باهتمام، وفجأة سمعت أرلجا صوت خيول من بعيد، فخرجت ببطء خوفًا من الخطر، لتكتشف أنّهم رجال الملك، فصرخت من الفرح، مما أثار رعب إيزابيل التي كانت مختبئة في أعماق المغارة، فهرعت إلى الشيخ للاحتماء به، حاول الشيخ المُسنُّ تهدئتها، لكنّها كانت مُرتبكة من شدّة الخوف.

لم يكن هناك داعٍ لسؤالها، فقد كانت الفتاة محاصرة بالفعل بين الحراس والعبيد، وظهر الملك الحريص متسلقًا تلك الصخور، مغمورًا بعرق بارد، خائفًا من سؤال ما إذا كانت عزيزة قلبه لا تزال على قيد الحياة.

«ها هي»! صرخت أرلجا عندما رأت الملك، «هنا سيدي، هنا! لقد كانت السماء نفسها درعًا لها!»

في لحظة واحدة، سمع الملك عن اختطاف إيزابيل، ووصل إلى مكانها، وظهرت إيزابيل كأنها ظهرت من العدم، خرجت الفتاة البائسة، تزحف تقريبًا على الأرض، مليئة بالخوف عندما رأت نفسها وحيدة، وبمجرد أن رأت الملك، التصقت بقدميه، كأنها لا تجد ملجأ أو حماية في هذه الأرض، وبدأت تبكي بمرارة دون أن تنطق بكلمة واحدة.

لم تترك ظروف اختطاف إيزابيل كما روتها أرلجا، وذكريات الملك نفسه، وفهمه

لشخصية عائشة، أي شك في أنها كانت روح المؤامرة، لم يكن ذلك بدافع الحزن أو الغضب من رؤية قلب زوجها يتحول عنها لغيرها (حيث يمكن أن يكون الحب نفسه عذرًا)، بل لكسر فؤاد الملك وتهديد حياة ما كان يحبه أكثر من أي شيء في العالم، وربما حتى للإذلال أمام الناس، فكيف تصل يدي الملكة إلى القصر نفسه.

قبل أن تبلغ الشمس ذروتها، اتجه الوزير ابن حامد، حاملًا رسالة من الملك، نحو قصر الملكة عائشة، حرص ابن حامد على الظهور بمظهر بسيط، دون أي مَظاهر تدل على منصبه، كان يرتدي زيًا بسيطًا، ويقود حصانًا، ولا يحمل سوى سيف دمشقي يتدلّى دائمًا على جانبه راغبًا في تبديد أي شكوك قد تراود الحراس، وصل ابن حامد إلى بوابة القصر ليجدها مغلقة، طرق الباب بقوة بمساعدة عبده الأفريقي، أطلّ أحد الحراس من فتحة الباب، وسأل بغرابة من يجرؤ على إحداث هذا الضجيج.

أجاب ابن حامد: «أنا رسول الملك» وكشف عن وجهه لإزالة أي شك، أشار إليه الحارس بيده لفتح الباب، فتردد للحظة، ونظر إليه مرة أخرى، ثم أطاع.

عندما وصل ابن حامد إلى الفناء الأول، رأى عددًا من الحراس حول بِركة، وكانوا على ما يبدو منشغلين بالصيد، لكنهم علموا بوصوله فكانوا يوجهون ظهورهم عَن قصد للطريق الذي أتى منه وتظاهروا بعدم سماع خطواته.

اقترب ابن حامد من الحراس وسأل: «من قائد هذه المجموعة؟»، فأجاب أحد الحراس: «أنا هو»، فقال ابن حامد: «أخبر عائشة أن ابن حامد يحمِل لها رسالة من الملك»، فأجاب الحارس: «الملكة ليست في غرفتها»، فسأله ابن حامد: «أين هي؟»، فأجاب: «لا أعرف»، فقال ابن حامد: «سأذهب للبحث عنها».

ما إن أنهى ابن حامد كلماته حتى انطلق نحو ممر في الطرف المقابل للفناء، لم يجرؤ أي مِن الحراس على إيقافه، إما خوفًا من شجاعته المعروفة وعظمته، وإمّا لعدم تلقيهم أوامر بمنعه من المرور.

أصابت المفاجأة والارتباك قلوب الحراس، حتى أشدّهم جرأة، خوفًا من المخاطرة بحياة الملكة بمقاومة غير مجدية، أمّا عائشة، فقد حافظت على هدوئها في هذا

الموقف الصعب، وطلبت من أقاربها وأصدقائها أن يتركوها وحدها، أرادت أن تسمع من فم ابن الأحمر هكذا وصفته بازدراء- إلى أي مدى وصل عمى الحسن.

بذل محمد زغري والقادة الآخرون جهودًا عبثية لإثناء الملكة عن عزمِها، وعندما فَقدوا الأمل في إقناعها، اختبئوا في مُحيط تلك الغرفة، كان عزمهم أكيدًا على التوجُّه للدفاع عن عائشة وسَفك دمائهم مِن أجلها، قبل أن يتسامَحوا مع أي إهانة تتعرض لها.

في خضم هذه الأحداث، كان بو عبد الله مستلقيًا على الوسائد قرب والدته يراقبها باهتمام دون أن ينبس ببنت شفة، كان متأثرًا بها وخاضعًا لإرادتها وشعر بالأمان في ظل حمايتها، لم يُظهر أي علامات غضب، بل لم يُبدِ حتى شجاعة تُذكر عندما رأى والدته مهدَّدة.

كان أي شخص آخر غير ابن حامد لَتردد عندما رأى ثبات الملكة، لكن زعيم بني الأحمر تقدم بِجدِّية دون خوف أو جرأة ونطق بهذه الكلمات فقط: «أرسلني ملك غرناطة لأعلن لك رغبته: يبعدك عن فراشه ويأمرك بمغادرة المدينة وضواحيها في أقرب وقت ممكن».

احمرَّ وجه الملكة، وكادت تفقد السيطرة على غضبها الذي كان يَغلي في صدرها، لكنها سرعان ما عادت إلى رشدها وأظهرت الازدراء في سلوكها ونبرة صوتها: «عُد إلى سيدك وقل له إن حفيدة حزمين المنتصر على الملوك قبَّلت يد مولاي الحسن دون غرور، واليوم تتركها دون حزن».

أراد ابن حامد الردَّ عليها، لكنها أعرضت عنه واتَّجهت نحو بو عبد الله حيث كان مستلقيًا، وقالت له رافعة ذراعها: «استرد صحتك يا بني فالعناية الإلهية تسهر على عباده، ولن تُترَك وحيدين دون مأوى على هذه الأرض».

***

الفصل الحادي عشر
عرض الملك الزواج من أسيرته النصرانية

بينما كان بو الحسن أسيرًا في حب إيزابيل، وكأنما سحر قد طغى عليه، لم يكن له همٌّ سوى التأكد من صحتها بنفسه، خوفًا من أن تخدعه الأخبار الطيبة وتُهدئ اضطرابه، فاتخذ قرارًا بزيارة إيزابيل في غرفتها برفقة أرلجا، بعد أن أمر خادمًا سرًا بعدم السماح لأي شخص بإعاقة طريقه.

وجد الملك إيزابيل مستلقية على بساط شاحبة الوجه، خافتة العينين، وشعرها مُفكك على كتفيها، عكست ملامحها وسلوكها أثر الحزن الذي خلّفتهُ المصيبة الأخيرة في روحها.

عندما رأت الملك يدخل، حاولت النهوض لتُلقي بنفسها على قدميه، لكن الملك العاشق منعها بكلماتٍ رقيقة، خوفًا من أن تُفتح جروحها مرة أخرى بأي جهدٍ بسيط.

انحنى الملك وقبّل يد إيزابيل، لكنّها سحبت يدها بسرعة، ولم تتمكن من حبس دموعها وبكائها، وقالت: «يا سيدي، حياتي، حريتي، كل شيء بين يديك، ولن أستطيع ردَّ جميلك مهما بذلت من تضحيات، فأنتَ تنظر بعين الرحمة إلى هذه اليتيمة المنكوبة، لكن اسمعني، يا سيدي باسم ما تحبُ، ولا تغضب من جرأتي، ابنة القائد سوليس لم تولد لتجلس على العرش، ولن تكون أبدًا بينما أنا حية عشيقةً لملك.» نطقت إيزابيل هذه الكلمات بكرامةٍ وحزمٍ، حتى إن أبا الحسن نفسه شعر بالدهشة، ولم يُمانِع حتى من اقتراب أرلجا، التي وضعت حدًا لهذه الموقف المُحرج.

ظلّ الملك صامتًا لفترةٍ طويلة، دون أن ينظر حتى إلى إيزابيل، التي ازدادت دموعها حدةً واختناقًا، حتى إنهُ في النهاية غادر الغرفة وهو يشعر بالارتباك والندم غير راضٍ عن نفسه ويشعر بثقل شغفه، بعد أن عبّر لإيزابيل عن أملِه في شفائها الكامل بكلماتٍ ضعيفةٍ وغير مترابطة.

ظلّ بو الحسن مُعتكفًا في غرفته لثلاثة أيام بدت له كأنها قرون، أهمل شئون الدولة ولم يلقِ بالًا لوزرائه ومستشاريه تائهًا بين قرارات مصيرية مُقيدًا بقيودٍ لا

يملك فكّها، كلما لاحت له بارقة أمل، ترددت في أذنيه آخر كلمات إيزابيل: «ابنة القائد سوليس لن تكون أبدًا عشيقةً لملك.» «ولماذا لا تكون زوجته؟» هتف بو الحسن بانفعالٍ وهو ينهض من مكانه من هي أجمل منها أو تُضاهيها صفات؟ المئات يُقدّمن لي سحرهن ويطلبن نظراتي ويُرهِقْنَني بدلالِهن بينما هي وحدها بائسةٌ وضعيفة لم تُبهر ببريق عظمتي، ماذا لو أحبتني؟ لقد فوجئتُ بعينيها تبحثان عن عيني، وعندما التقتَا خفضتهما خجلًا، تعبيراتها عن الامتنان رقيقةٌ وحارة، وكأنَّ الحب نفسه يُملِيها، اضطرابها واحترامها في حضوري السعادة التي لمعت على وجهها عندما ألقت بنفسها عِند قدمي في الكهف، من أجلي خاطرت بحياتها ومن أجلي أصبحت هدفًا لسهام أعدائي، بالكاد يكفي ظِل عرشي لحمايتها وأنا سأتركها دون مأوى؟ شعبي، رعاياي، مَن منهم، مهما كان بائسًا، ألا يحقُّ للملك أن يختار حبيبة قلبه زوجة؟ إيزابيل هي من أريد، وسأفعل ما بوسعي لنيلها، لن أكون أول ملك في التاريخ يرتبط اسمه بأسيرته إيزابيل هي..

ظلَّ هاجس إيمان إيزابيل يُطارِدُ بو الحسن، فهل ستتخلّى عن دين آبائها من أجله؟ ازدادت وطأة هذا الشك على قلبه خاصةً مع شعوره بالعجز أمام هذه العقبة الجديدة، لكنّه لم يُطِق صبرًا على البقاء في هذه الحيرة المُرّة ففضَّل الموت إن لزم الأمر، لذلك أرسل في طلب أرلجا وباح لها بما يُخالجُ، استمعت الأم المسلمة بذهولٍ ودهشةٍ إلى قرار الملك على الرغم من أنّها لطالما تمنّت في خيالها أن ترى ابنتها على العرش، لكنّها الآن وقد اقتربت سعادتها شعرت وكأنّها تعيش حلمًا وخشيت أن تستيقظ من سحره، لم تتمكّن حتى مِن التعبير بكلمات عن مشاعرها المُتضاربة، فكانت تبكي وتبتسم في الوقت نفسه، وتُقبّل أقدام الملك، ولم تُسمع من شفتيها سوى هذه الكلمات المُتقطّعة: «عظّم الله أجرك وباركك! ملوك الأرض سيحسدونك على حظك، ما أعظم مِن هذا الكنز في العالم؟».

عبّر المَلك عن امتِنانه لأرلجا على مظاهر الولاء والحبّ التي أظهرتها، وكيف عَكَست مشاعر الأم تجاه إيزابيل، وبعد تأكِيده المُكرّر على ضَرورة الحصول على مُوافقة الفتاة، لإتمام الزواج المُنتَظر دون تَأخير، جدّد المَلك حثّه لأرلجا وتوسّله إليها، ثم ودّعها، وعندما اقتربت مِن الباب، خَرج الملك مسرعًا وكأنّه في حالة من

الاندفاع، وقال لها: «لا تغفلي ما قلته، أخبري إيزابيل أنّ بو الحسن يُقدّم لها قلبه ويده، لكنّه لا يُسامح مَن يُقلّل من شأنه».

***

الفصل الثاني عشر
زواج الملك من إيزابيل دي سوليس

مع اقتراب مَوعد وصول جلالة الملك، تبعه ابن حامد يرافقه القاضي، بينما اتَّخذ بعض الوزراء والقادة ذوي الرتب الأدنى أماكنهم في الحديقة المجاورة، بإشارة خفيفة، وقفت أرلجا بجانب الملكة إيزابيل ووضعت على رأسها غطاءً مِن حَرير رقيق شفاف كشف عن ملامحها الجذابة وزاد من سحرها وجاذبيتها مما أثار فضولها ورغبتها في التعرف عليه.

سبقهما الملك مرتديًا زيًّا بسيطًا، لكنه أظهر عظمته ووقاره وسط الملابس الباذخة للقادة والنبلاء، كان يرتدي سترة على الطريقة الفارسية وعمامة شرقية مزينة بريشة واحدة.

ساد الصمت حديقة هندراجة بينما عبرها الزوجان، متجهين إلى الطرف الشرقي لفناء الأسود حيث ينساب ضوء الشمس من الشرق، هناك وسط متاهة من الأعمدة المكدسة، بدا المكان كمعبد للحسنات يُفضي إلى قاعة فخمة.

بصوت عميق وهادئ طلب القاضي موافقة الزوجين، فصدح صوت الملك العاطفي من صميم قلبه بالموافقة، بينما عكس اضطراب الفتاة تناقضًا بين الحياء والحنان.

بصفته كبير قضاة غرناطة، استلم ابن حامد وثيقة الزواج المكتوبة بأحرف مُلوَّنة على خلفية ذهبية مِن يد القاضي، ليحفظها في الأرشيفات الملكية.

قبل انتهاء مراسم الزفاف، قدَّم بو الحسن لزوجته، كنوعٍ من المهر، صينية مليئة بالجواهر والهدايا التي أذهلت عينيها بريقها، ثم أعطاها ملفوفة في الحرير ورقة مكتوبة بخط يده يؤكد فيها على مَهرها الضخم، وضمن هداياه الأخرى قصرًا من أجمل القصور على ضفاف نهر شَنيل، حيث تم تربية أجمل وأندر الطيور من جميع أنحاء العالم لتسلية الملوك.

غمرت الدهشة قلب الفتاة عند تلقيها الهدية الملكية، وكادت ترفض يد الملك

دون قصد، وفجأة، كأن شعاعًا من البرق قد أضاء عقلها، تذكرت عادةً سائدة بين تلك الشعوب، وهي تأمين مستقبل الزوجة بمَهر ذي قيمة في حال طلّقها الزوج دون سبب.

ازداد شعورها بالقلق، وبدأت الدموع تنهمر من عينيها، وشعرت بتناقض مشاعرها بين الحياء والخوف، لم تتمكن من الوقوف على قدميها، فسقطت عند قدمي الملك قائلة: «ليس لدي أي سند في هذا العالم، أرجوك لا تتركني!»

قاطعها بو الحسن وهو مُندَهش محاولًا رفعها من الأرض: «ماذا تقولين يا زوجة حياتي؟ ماذا تقولين؟» أجابت الفتاة المكلومة: «لن أرفع رأسي من هنا حتى تُقسِم لي على عدم الابتعاد عني أبدًا، احتفظ يا سيدي، احتفظ بكنوزك، فلو فقدت حبك وحنانك يومًا ما فأنا أقسم لك الآن بروحي وحياتي، إنني لن أحتاج إلى ثروة أو قصور، بل سيكفيني بضعة أقدام من الأرض «بينما كانت تقول ذلك، التفتت بحُزن إلى القبة أو مقبرة الملوك التي لم تكُن بعيدة عنها، وظلّت جامدة وشاحبة حتى تمكن الملك بصعوبة من رفعها واحتضانها بحنان.

أدرك الملك بو الحسن حزن إيزابيل ومفاجأتها، فتوسّل إليها مرة أخرى أن تقبل بعض الهدايا، لكن بعد فشله في التغلب على عنادها وخوفًا من إيذائها بإلحاحه، قال لها: «اطلبي مني ما تشائين، ودعيني أتمتع بسعادة سماع رغباتك من شفتيكِ، ما فائدة سلطة العرش إذا لم أملك هدية واحدة أقدمها لزوجتي؟».

شجعت هذه الكلمات إيزابيل التي عكست شغف الملك وكرمه، فأجابت بعد لحظات دون ارتباك أو خجل: «بما أن كرمك كبير تجاه هذه التعيسة، فسأجرؤ على طلب واحد منك.»

«لا تترددي، تكلمي حتى حياتي إذا أردتها فهي لكِ!»

«لقد كنتُ تعيسة للغاية، كما تعلمون يا سيدي، ولكنكم جففتم دموعي.»

«ولماذا تُحزنين نفسكِ بهذه الذكرى، الآن وقد اكتملت سعادتكِ وسعادتي؟».

«اعذرني يا سيدي، إذا سببت لكِ كلماتي الحزن، لكن لأنني سعيدة الآن لا يمكنني

أن أنسى مَن هُم تُعساء للغاية، في مملكتكِ يا سيدي، في هذا القصر نفسه، هناك العديد مِن الأسرى، كما كنتُ أنا حتى اليوم، كسر يا سيدي قيودهم ودعهم يعانقون أحباءهم، أطلب منكِ ذلك بحبي، بهذه الدموع التي أذرفها، إنها أعظم هدية يمكنك أن تقدمها لي في حياتي!»

سحرت إيزابيل الملك بعدم اهتمامها وبراءتها وحنانها، فكانت في نظره كملاك من السماء، فأمر على الفور بفتح سجون قصر الحمراء وإطلاق سراح مئات الأسرى المسيحيين، وعلى الرغم من هَوَس العاطفة ونشوة السعادة، ظل يردد طوال حياته أنه لم يذُق لحظة أسعد من تلك التي رأى فيها «التعساء يبكون من الفرح، ويسجدون عند قدميه، ويدعون لزوجته المحبوبة بالبركات».

***

الفصل الثالث عشر

مكائد السلطانة عائشة

بينما كان بو الحسن ينعم بسعادة غامرة لم يشهدها إنسان على الأرض، اتخذت الكراهية والانتقام والمشاعر السامة الأخرى التي تُنذِر بالاضطرابات والكوارث مِن قصر عائشة ملجأً لها، فما إن انتشر خبر زواج الملك الوشيك في قصر الحمراء حتى سارع بعضهم بإبلاغ عائشة، التي رفضت في البداية تصديق الخبر لكبريائها وفخرها، لكن سرعان ما أكد لها مُحرِّضو الشر، الذين يكثرون في القصور حقيقة إهانتها فانفجر غضبها بقوة لم يسبق لها مثيل.

تجولت عائشة في غرفتها بلا راحة، دون توقف للحظة، كأنها زوجة نمر غيور مُحاصَرة بين قضبان الحديد، تراودها ألف خطة، كل واحدة أكثر خطورة من سابقتها، ففي أول اندفاع لغضبها، حاولت الهروب بزي مُتنكِّر والظهور فجأة أمام الناس وتحريضهم على ابنها، لكن لحسن حظها مَنعها حجم هذه المهمة الضخمة من القيام بها، فقررت على الأقل استشارة زعيم حاشيتها، فطلبت حضوره على الفور وخرجت للقائه مسرعة، وقالت له قبل أن يقترب: «انظر يا محمد، ثمرة كل هذه المعاناة والذُّل، ذلك الذي بالكاد تجرأ على إهانتي يخفي حبه الدنيء تحت الأرض، ذلك الذي كان يرتجف في حضوري وكان يخاف من غضبي وانتقامي حتى في أحلامه، ها هو الآن مغرور، وقِح، وخائن، يطردني من عرشي وسريري، ويضع في مكانه جارية، هل تشك في ذلك؟ اذهب مسرعًا، في هذه اللحظة بالذات يحتضنها، ويعلنها زوجته، ويقدم لها ذلي وإهانتي كقربان، حفيدة حزمين، ملكة عائلتك، وصديقتك، وحليفتك، ترى نفسها اليوم تتدحرج في الوحل، ألا تشعر بالدم يغلي في عروقك؟».

ظل محمد صامتا لبضع لحظات، دون أن يظهر أي تغيير طفيف في حركته أو وجهه، كانت عائشة تراقبه بدهشة، حتى إنها لم تتمكن حتى من إيجاد الكلمات، ولكن لم تعد تستطيع كبت نفسها، وعندما كانت على وشك الانفجار في الشكاوى والشتائم، قاطعها الزعيم بكلماته: «لا تتعجبي يا عائشة من دهشتي من غضبك،

لقد جئتُ لأبارك لكِ انتصاركِ وانتقامكِ، فما سرّ غضبكِ؟ قاطعته عائشة، وقالت: «انتصاري وانتقامي؟! ألم تدخل ألف مرة قصر الحمراء؟ أليست أبوابه مبللة بدم الملك إسماعيل، الذي فقد العرش والحياة بسبب حب عبدة حقيرة؟ كانت جميلة، كما يقال، ومولودة في القرية نفسها التي تقود اليوم إلى بو حسن لتتحقق مصيرها!»

لم يزد العربي على ذلك، وظل هادئًا وراضيًا كما لو كان يرى بالفعل بعينيه هلاك الملك، سلوكه، وكلماته، وتأثيره على روح عائشة، كزعيم لقبيلتها، وسمعة حنكته المشهورة، والسمعة التي اكتسبها من خلال إنجازاته، كلها أعطته ثقلًا وسلطة كبيرين، حتى إنه تمكن في النهاية من تهدئة غضب الملكة وتركها مقتنعة بضرورة انتظار الوقت المناسب، ليس كمن يغفر الإهانة بجبن، بل كمن يتربّص بالعدو ليضربه بأمان حين غفله.

***

الفصل الرابع عشر

اشتباك الزغريون مع بنو سراج

بعد أن خصص الملك بو الحسن بضعة أيام للاستمتاع برفقة زوجته بعيدًا عن عبء القيادة وثقل المسئولية، بدأت فعاليات الاحتفال بزواجهما، أصدر الملك أمرًا بإقامة زَمْبَرَةِ(12) في قصر جَنْرَالِيفِ، حيثُ يتباهى الجميع بِرَوْنَقِ بلاطهِ الذي لم يضاهِه بلاط أي ملك آخر في ذلك الوقت.

انسابتِ الموسيقى من بعيد، خيوطٌ رقيقةٌ تنسجُ لحنًا عذبًا يلامسُ آذانَ الملكِ وزوجتهِ، كانا يتابعانِ الرقصاتِ الجميلةَ التي تُزهرُ في الردهةِ المقابلةِ، فتملّكَهما السحرُ والبهجةُ.

أُعجبتِ الملكةُ إيزابيلَ بشكلٍ خاصٍّ برقصةٍ صعبةٍ ومُتقنةٍ، سمّاها العرب «ليلى»، قارنتها بالرقصةِ المُهيبةِ والمُنظّمةِ التي شاهدتها في قشتالة، وقالت لزوجها بِمُزاحٍ: «أنتمْ محظوظونَ حقًّا، لأنّكمْ تُترجمونَ أحلامَكمْ حتى في الرقصاتِ.»

ازداد إعجاب الملك بجمال زوجته الرقيقة مع كل ابتسامة منها، بينما كانا يتبادلان أطراف الحديث العذب، لفت انتباههما فجأة طيران بعض الطيور التي سقطت عند أقدامهما، اتضح أنها أطلقت من أعلى شجرة سرو عالية، بينما كانت هاتان الورقتان الجميلتان مُتّحِدَتَين أيضًا، حيث طارتا معًا من قاعدة الشجرة نفسها، التي كانت تغطي بِظِلّها الزوجين السعيدين.

تبادل بو الحسن نظرة حانية مع زوجته، فأشرقت ابتسامة عريضة على وجهها تعكس سعادتها الغامرة، خفضت ثريا عينيها بحياء، لكن شعورها بالسعادة تجاوز مجرد التقدير لجمالها، فاق البذخ الزائف وعظمة العرش، لكن احتفالات الشارع لم تصمُد، فانفجرت ثورة دموية بين الزّغْرِيّينَ(13) وبَنِي سَرّاجٍ، لا أحد يعلم ما كان سيحدث لولا الارتباك واليأس الذي سيطر على الجانبين كليهما، كان الغضب شديدًا، والكراهية والرغبة في الانتقام قوية، لدرجة أنهم لم يرضوا إلا بإبادة خصومهم، أضاع بو الحسن الفرصة الوحيدة التي منحته إياها الأقدار لإطفاء اللهب قبل أن

ينتشر، فبسبب الغشاوة والخطأ، عهد بالسلطة العليا إلى زعيم أحد الفصائل، تاركًا بذلك مصيره، وعرشه، وحياته، عرضة لصراع الأحزاب، شعر الشعب، ذلك الشعب المتقلب الذي نسي حتى ذكرى ويلات الحرب الأهلية، بالقلق في نفسه، وشحذ هو نفسه الأسلحة.

بذل بعض الشيوخ والعلماء والفقهاء جهودًا عبثية للعب دور الوساطة، حاملين معهم كلمات ونصائح تدعو إلى السلام، إلا أنّ الغضب كان يتصاعد في كل لحظة، وازداد الخطر، حتى تلاشى الأمل، لكنّ مشيئة القدر في أحكامه الغامضة، شاءت أن تؤجّل لفترة من الوقت هلاك تلك الإمبراطورية التي كان مصيرها محتومًا بالفناء على يد أبنائها.

وعندما دق ناقوس الانهيار القاتل، وباتت الدماء على وشك أن تُسفك، دماء الإخوة والأبناء، صمتت الأسلحة فجأةً، إثر حدث لم يكن في الحسبان، نظر الملك إلى أخيه كطوق نجاة، بمجرد أن زال عن وجهه أثر المفاجأة التي سببها له مجيئه غير المتوقع، ودون أي رغبة أو اهتمام سوى إبعاد الخطر الوشيك بكل ثمن، أمر ابن حامد بالحضور فورًا إلى حضرته، بينما أمر زغل بالاسراع لاحتواء الزّغرِيّينَ، أطاع القائد أمر الملك، وأظهر رضاه وغروره بثقة الملك به، لكنه قرر في نفسه ألا يذكر حتى اسم الملك ولا يستفيد من سلطته، بل أظهر نفوذه وسلطته الشخصية.

لم يمضِ وقت طويل بعد خروج الأمير من بوابة باب الرملة، باحثًا عن مجرى نهر داؤرو، حتى لاحظ انتشار الزّغرِيّينَ على ضفتي النهر، ممتدين حتى ملتقى نهر شَنيل، اتخذوا استعداداتهم للقتال، منتظرين هجوم أعدائهم في أي لحظة، وعندما شاهدوا الحشد الضخم يتجمع من بعيد، دون تمييز السبب الحقيقي، أطلقوا صيحة الحرب ورفعوا رماحهم في الهواء، حالت غضبتهم دون تمكنهم من رؤية الراية البيضاء التي ترفرف أمام زغل، وعندما سمعوا اسمه يتردد من فم إلى فم كالصدى، رددوا الهتافات وخرجوا للقائه.

لا ريب أن عبور الأمير عبر ذلك الحشد الغفير كان مشهدًا مهيبًا، فقد تجلى فيه حزمه وشجاعته، بينما كان يوزّع ابتساماته على بعض الحاضرين، وينادي آخرين

بأسمائهم، متفوقًا على الجميع دون ذرة غرور أو تكبر، وعندما سأل عن رفيقه في المعارك باهتمام بالغ، هتف الحشد: «ها هو ذا!» وحملوه على أكتافهم تقريبًا ليصل إلى حيث يقف محمد.

غمر السرور القائد لرؤية هذا الأمير الشجاع يبحث عنه، وإدراكًا منه لقيمة كسب ودّه، لم يتردد في تقديم كل أنواع التكريم والاحترام له أمام أعين رجاله، انسحب الحشد المحيط بالأمير ومحمد قليلًا، على الرغم من شغفهم برؤية هذين القائدين المشهورين عن قرب، وبعد نقاش سري لم يُسمع له صوت، علا صوت الأمير ليقول بوضوح: «لم أُخطئ يا محمد حينما وضعتُ ثقتي في حكمتك، لن تفوت هذه الفرصة على هؤلاء الشجعان لإظهار بسالتهم في المعركة، ولكن لا سمح الله أن تنوح غرناطة اليوم»!

تردَّدت هتافات التأييد من جميع أنحاء الحشد، فبادلهم الأمير بالشكر من خلال حركاته وتعبيرات وجهه، وكأنّه لاحظ غياب علي، فبدأ يبحث عنه بعينيه ليجده بين القادة الآخرين، فناداه من بعيد: «أين أنت؟ لم أجدك؟ من الواضح أن الذين يفترون عليك لم يروك في المعارك، لقد رأيتُ رمحك دائمًا يضرب الصدر لا الظهر».

ارتبك الزغري ولم يجد جوابًا مناسبًا، فهو لم يجرؤ على الاعتراف بجُبنِه، وكان يرى في الكذب عارًا، أخيرًا، قال بتردد وارتباك: «إذا كان ابن سراج يعتقد أنني من جرحه، فلماذا يتأخر في الرد والانتقام؟»

أرضى هذا الرد الملتوي الزغبي، فأغدق على القائد بالثناء ليكبّل يديه بهذه الطريقة، وطلب من محمد ألا يفارقه وأن يحاول تهدئة حماسة رجاله، كما أكد الأمير أنه سيضمن سلامة علي بكلمته.

عاد الزغبي إلى حيث يوجد الملك، ليجد زعيم القبيلة حاضرًا أمامه، يُبدِي انزعاجه الشديد من إيقاف هجومه، فبالإضافة إلى طبيعته المتكبرة ورغبته في الانتقام، شعر بخيبة أمل عميقة لفقدان مثل هذه الفرصة الثمينة، كان يتمتع بدعم سلطة الملك وشعبية بين العامة مما زاد من شعوره بالضيق.

ومع ذلك، لم يكن أمام ابن حامد سوى إخفاء استيائه عندما سمع قرار الملك وأمره المباشر، وبمجرد أن تأكد من وصول الزغبي، وبدأ يراه من بعيد، بادر بتغيير تعبير وجهه وسلوكه، فمثل شخص فقد الفرصة، ظهر وكأنه يقدم عن طيب خاطر ما سرقته منه الأقدار.

***

الفصل الخامس عشر

اعتراف ثريا بحبها للسلطان في غرناطة

ساد القصر شعور بالدهشة العارمة مع بدء انتشار الهمس قبل حلول الليل بقرار الملك التوجه إلى مدينة مالقة، سرعان ما انتشرت أخبار الاستعداد للرحلة، وأن الملكة سترافقه، وأنه لن يصطحب معه سوى حراسة صغيرة، تاركًا وراءه مظاهر البذخ الباطلة في البلاط.

في الأيام القليلة التي سبقت الرحيل، غمر النشاط والبهجة الملك أكثر من المعتاد، ربما كان ذلك بسبب حاجة خياله النشط إلى طعام وغذاء، خوفًا من أن ينهار تمامًا، أو ربما كان سعادة الأمير الطيب نابعة من رؤية سعادة السلطانة ثريا التي طرحت عليه ألف سؤال ناتجة عن براءتها وعدم خبرتها، حيث ظهرت قلقة وفرحة كما لو كانت ستجول العالم.

تحت سماء صافية خالية من الغيوم، وصل الموكب الملكي إلى سَهْل واسع على مقربة من نهر شَنيل، انحرف النهر يمينًا عند مغادرته غرناطة، وكأنّه يُسرع لاستقبال الأنهار الأخرى كروافد له، تميزت تلك السهول بجمالها الخلاب حيث كشفت عَن مَنظر بانورامي للساحل الواسع المليء بالمئات من القرى والبلدات، تراءَى جبل مغطى بالثلوج حتى سفحه، بينما اخضرَّت الحقول في أسفله، وبَرَزت أسوار المدينة وأبراجه تتويجًا للقمم، استمتع الملك بالمناظر الخلابة، فأمر بالتوقف، وتوقف برضا خاص عندما تعرَّف على جزء من القصر الذي كانت الملكة تقيم فيه، قالت ثريا أخيرًا: «لا مثيل لغرناطة، يا بو الحسن»، «غرناطة وحبك، ما السعادة الأكبر على الأرض؟»، وعندما نطقت السلطانة بهذه الكلمات، حدق في عينيها بحب وحنان، كما فعل عندما أعلن لها عن حبه الشديد لأول مرة.

***

الفصل السادس عشر

«معركة الظلام»

أو استيلاء المسحيون على مدينة زهرة

انطلق بو الحسن من مالقة دون مرافقةٍ أو مَظاهر باذِخة، تاركًا نواياه طيّ الكِتمان، روَّج شائعةً عن توجهه إلى رندة(14)، المدينة المُحصنة بطبيعتها بجبال شاهقة ووديان عميقة، لكن حتى هذه التحصينات لم تصمد أمام جرأة المسيحيين الذين وصلوا إلى جدرانها، تاركين إحدى أبراجها مدمرةً كعلامة على عدوانهم، بدت نِيَّة الملك طبيعية للغاية، وكان الناس قد كوَّنوا انطباعًا عن مَيْله إلى الراحة والرفاهية، لدرجة أنهم لم يشكوا في وجود نوايا أخرى لديه، لذلك، كانت المفاجأة كبيرة والبهجة أكبر عندما انتشرت الأخبار غير المتوقعة عن استيلائه على زهرة الأطلس(15)، والتي تم اجتياحها بحظ في خطوة استثنائية في غضون ليلة واحدة.

كان الملوك الكاثوليك يقيمون في ميدينا ديل كامبو، تلك المدينة التي عرفت في ذلك الزمن بصناعتها وثروتها اللتَين كانت تُباهي بهما في معارضها الشهيرة، موضع حسد أوروبا، وعندما حظي هذان الأميران بأقصى درجات الراحة، بعد أن تحرروا مِن أعدائهم الخارجيين بفضل جهودهم وحكمتهم، اتَّجه تركيزهما واهتمامهما نحو تعزيز السلام الداخلي ورفاهية المملكة، فجأة وصلت إلى مسامعهما الأخبار المحزنة للغاية عن دمار زهرة، لقد احتاجوا إلى قوة كبيرة لمقاومة رَغْبَتِهِم في الانتقام مِن كل هذه الإهانات، ورغبتهم النبيلة في المجد وغيرة الدين، التي دفعتهم جميعًا ضد الكفار، بينما كان العديد من الفرسان المتميزين يلحُّون على الملكة إيزابيل لكي لا تؤجِّل إهانة كبرياء الكفار لفترة أطول، برز شيخ جليل، تميز بمثابرته التي لا تتغير، حيث لم يفوِّت أي فرصة أو مناسبة للظهور أمام الملكة.

تحت ستار رحلة صيد، لتمويه نواياه بشكل أفضل، غادر الماركيز قرية أركوس التي ورثها عن أسلافه، وسار مع حاشية صغيرة، جميعهم من رجال السلاح، الذين

لم يتعودوا فقط مطاردة الوحوش في الغابات، بل هزيمة الأعداء في المعركة، واتُّجه عبر الطرق والاختصارات إلى ضواحي إشبيلية، حيث كان قد اتفق على عقد اجتماع سري مع دون دييغو دي ميرلو، فارس ذو شجاعة كبيرة وحكمة راسخة، تم تعيينه من قبل الملوك الكاثوليك مساعدًا للأندلس، وبعد بضعة أيام، وبينما كان الفارسان كلاهما يتصرفان بأقصى قدر من الحذر والسرية، جهز كل منهما رجاله، المختارين والمجربين في مائة معركة، واتجهوا عبر طرق مختلفة إلى النقطة المتفق عليها، دون أن يواجهوا أي عائق أو خطر، فوجدوا أنفسهم مجتمعين وكأنهم بمعجزة في قلب مملكة غرناطة، عند سفح الجبال الوعرة التي تقع فيها مدينة الحامة.

تحت جنح الظلام الدامس، الذي غطى الأرض كستار أسود، اختبأ المسيحيون في الوديان العميقة التي تُشكّلها الجبال الوعرة، تحت وطأة الرياح العاتية والسماء المُمطرة بغزارة، ساروا في طابور واحد، مُتسللين بين الوديان والصخور بحذر شديد، حتى كاد صوت خطواتهم يذوب في صخب العاصفة، وصلوا أخيرًا إلى سفح برج شامخ، حيث كاد التنافس بينهم على شرف الصعود الأول أن يُفشل مهمتهم، فقال مارتين غاليندو، بثقة وحزم: «إما أن نصعد جميعًا وإما نموت جميعًا.»، ووضع سلمًا وصعد عليه بسرعة فائقة، تبعه خوان أورتيغا، ذلك الفارس المقدام الذي لا يُقهر، قائلًا: «سنحتضن على الأسوار، أو في الأبدية.»، وبعد لحظات قليلة، ظهر شخصان على الأسوار، كأنما هما رمز النصر القادم، وتبعهم حوالي مائة رجل شجاع، يصعدون واحدًا تلو الآخر، متمسّكين بالحبال التي تتأرجح تحت ثقل أجسادهم، وواجههم الموت في الأعلى، بينما كانت هاوية عميقة تُحدق بهم من أسفل، وبمجرد وصولهم إلى القاع، انقضوا على القلعة بكل شجاعة، دون مخرج أو ملجأ، وساروا في الظلام الدامس، يفتحون طريقهم بالسيف، تاركين الحراس في حالة من الذُّعر والرعب، عاجزين عن النوم أو مقاومة البرد، ولم يكن لديهم حتى الشجاعة للدفاع عن حياتهم.

مع سيطرتهم على البرج، حقّق المسيحيون انتصارًا جزئيًا فقط، بينما كانت المخاطر الأكبر لا تزال تنتظرهم، كان عليهم مغادرة الحصن المنيع، والاشتباك في معارك ضارية في الشوارع والساحات، والسيطرة على المدينة بأكملها قبل حلول

الفجر، وسط حشد من الفرسان الشجعان، خاطبهم ماركيز قادش قائلًا: «لم يتبقَّ لدينا سوى ساعات قليلة، هل سنكتفي بحرق برج كما فعلنا في رندة؟ لكن في تلك المرة يا رفاق، لم يكن لدينا ثأرٌ ننتقم به لزهرة.»

لم ينتهِ من كلماته حتى فتحوا الأبواب وانطلقوا كالسيل الجارف، أشبه بشلالٍ متدفق، وبدلًا من استغلال عنصر المفاجأة، نفخوا في الأبواق وصرخوا بصوت واحد «سانتياغو وإسبانيا».

خلَّد التاريخ تلك المعركة باسم «معركة الظلام»، وهو اسمٌ يعكس بشاعة الأحداث التي وقعت فيها، ففي غضون ليلة واحدة، تدفقت أنهار من الدماء في مدينة الحامة، ووقع سكانها بين قتيلٍ وأسير، وعندما بزغ فجر اليوم التالي كان العلم المجيد لقشتالة يرفرف على أبراجها إيذانًا بانتصارٍ عظيمٍ حققه المسيحيون.

***

الفصل السابع عشر

توالي سقوط المدن

«سقوط الحامة وسجن بو عبد الله»

عندما بدأت الشائعات تنتشر في غرناطة حول سقوط الحامة، رفض الناس تصديق هذه الأخبار المريرة، بدَا مِن المستحيل أن يُقدم المسيحيون على اختراق المملكة بأسلحتهم حتى قلبها، محاطين من جميع الجهات بالأعداء، وقادرين على رؤية أبراج الحمراء بأعينهم تقريبًا، لكن سرعان ما تحوَّل الذهول الأول إلى شك، ثم إلى يقين راسخ، مما أدى إلى تفاقم القلق والاضطراب بشكلٍ كبير، ففي غضون ساعات قليلة، غرقت المدينة في حزنٍ عميق.

اجتاحت مَوْجات مِن الهلع شوارع غرناطة وساحاتها، حيث تردد اسم «الحامة» على ألسنة الناس وسط صرخات البكاء والنحيب، صرخت النساء وشددن شعرهن وضربن وجوههن بأيديهن علامة على الحزن المرير، وداخل المساجد دوت أصوات الأئمة تحثّ الناس على الجهاد المُقدَّس، مردِّدين صرخة «الله أكبر» المرعبة للمسيحيين.

ولم يهدأ بال السلطان، بل سعى جاهدًا لتهدئة مشاعر المدينة، فأعلن الحرب على المسلمين(16) ورفع الراية المقدسة، رمز النصر، وفتح خزينة المملكة، وجمع جيشًا عظيمًا، ووضع نَفسه على رأسه، وبدَا الأمر أشبه بسحرٍ، حيث غُطِّت الجبال والوديان فجأةً بالجنود.

Telegram:@mbooks90

توافد إلى المكان زعماء قبائل أخرى، بعد أن تمّ إشعارهم مسبقًا من خلال رسلٍ سريين، تربطهم بقبيلة الزعغرية علاقاتٌ من صداقة أو قرابة، وعندما اجتمعوا ألقى زعيم تلك القبيلة النبيلة خطابًا فرض فيه الصمت والاهتمام بفضل هيبته ومكانته قائلًا: «ملكٌ ضعيفٌ وقع في شرك خليلةٍ شريرة، وملكةٌ من سلالةٍ عريقة طُردت من فراشها وأصبحت أسيرةً في قصرها، وابنها بو عبد الله محاطٌ بالخونة والجواسيس، بينما أعداؤنا اللدودون يهينوننا ويُسيئون إلينا، زعماء بني الأحمر هم مَن يقودون

الجيش، وزعماء بني الأحمر هم مَن يُقمعون المملكة، وزعيم بني الأحمر هو مَن يُهين العرش، هل سنصمت عن ذلك لفترة أطول؟ لقد نجح السلام ورخاء الدولة حتى الآن في احتواء غضبكم، لكن هذه الراحة نفسها قد تمّ كسرها، وتمّ تحطيمها، ليس بجرأة الفرسان، بل بخوفٍ وخنوعٍ، سلوك اللصوص، لقد أدى سقوط زهرة إلى كارثة الحامة، وسبب هذه الكارثة، الذي كان جبانًا في المخاطر كما كان متهورًا في استفزازها، قد أدار ظهره مرة واحدة، وربما يعود الآن ليُغطّى بمزيد من العار.»، لم يكن زعيم الزعغرية بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد في إقناعهم، لأن الحاضرين كانوا عازمين للغاية، لدرجة أنهم بالكاد تمكنوا من احتواء غضبهم وعدم صبرهم.

ما إن أنهى الشيخ حديثه حتى ساد جوٌّ من الهَزج والمَزج، أشبه بما يُلاحظ في البحر قبل هبوب العاصفة، وفجأة، نهض عليٌّ الزعغري مِن مِقعده، وصرخ: «لا مزيد من بني الأحمر!»، وسرعان ما ردّد زعماء آخرون صرخة الغضب والانتقام نفسها، فتعالت أصواتهم بين قباب تلك الأنفاق بشكلٍ مُربك، في تلك الأثناء، استمرت المعركة بين المسلمين والمسيحيين على أشدّها، فبعد الحصار الرهيب لمدينة لشبونة، واجهت جيوش الملوك الكاثوليك هزيمة فادحة في سهول مالقا، لكنهم سرعان ما تداركوا الأمر، وحصلوا على ثأرهم مِن الكفار، حيث حقّقوا نصرًا عظيمًا وأسروا بو عبد الله نفسه، الذي خرج للقتال كمِلك بناءً على إلحاح والدته، ونَجا بحياته بأعجوبة، أدّى ذلك إلى شعور الجميع بالبهجة والسرور في أرض المسيحيين، بينما غَرقت مَملكة غرناطة في اضطرابٍ ويأسٍ عميقين، كانت الضَّربة قوية وفجائية لدرجة أنها فتحت عيون سكان غرناطة على الفور، فأدركوا خطورة الشرور التي كانوا يفتحونها بأيديهم، وبما أن الخطر المشترك قد هدأ المشاعر الدَّنيئة، فقد اتَّفق الجميع على توحيد جهودهم وتسليم دفة الدولة إلى يدٍ واحدة.

مع سجن بو عبدالله، انهار عرشه، مما أدى إلى فوضى عارمة كادت تُودي بحياة بني الأحمر، لكن بفضل ذكاء عائشة ونفوذهم، تمكّنوا من تهدئة الشعب ومنحهم الوقت للاحتماء في البيازين والقصبة، منتظرين انحسار العاصفة مثل من يبحث عن ملجأ، بينما يمرُّ أشدُّ جزء من العاصفة، دون التخلي عن مُتابعة مَسيرهم بعد ذلك، في مالقا، علم بو الحسن بفعل ابنه الشائن، فراوضه شعورٌ مزدوج، وكانت الكراهية

التي يكنها لعائشة قوية لدرجة أنه في اللحظة الأولى شعر بانشراح قلبه، وكان عليه هو نفسه أن يخجل، عندما رأى أن الفرح يملأ قلبه بانتصار المسيحيين، لكنه تمالك نفسه قدر الإمكان، حتى لا يفتح عيون رعيته المخلصين، وترك أخاه مسئولًا عن حِراسة تلك المدينة وحراسة الحدود، وانطلق دون إضاعة لحظة إلى لشبونة التي استقبلته بترحيب كبير، لم يتردد في العودة إلى غرناطة للاستفادة من اليأس والمفاجأة لصالحه، فاستقبله وفد من الفرسان يضعون مفاتيح المدينة عند قدميه، طالبين منه الرحمة، سُرَّ بو الحسن بذلك، وازدادت سعادته برغبته في استعادة عرشه والعودة إلى الحمراء بجانب زوجته، في صباح اليوم التالي، دخل بو الحسن برفقة ثريا إلى غرناطة، وهرع الناس بأعداد كبيرة، كما لو كانوا يستقبلونه في نصر، بالموسيقى في الشوارع، هتافات وتصفيق، والأرض مغطاة بأغصان النخيل والزيتون احتفالًا بعودة ملكهم.

***

الفصل الثامن عشر

سجن بو الحسن بدلا من ابنه

مع استعادة العرش المفقود، عاد بو الحسن إلى أحضان زوجته، مُطمئنًا على مصير بوعبدالله في قبضة الملوك الكاثوليك، مُتخيلًا أن الشكوك تجاه أخيه قد تلاشت، لكن سرعان ما تبدَّدت تلك الأوهام، حيث استغل الملوك الكاثوليك الخلافات الداخلية وانضموا إلى بني زيري لإعادة بو عبدالله إلى عرش غرناطة، بينما أسروا والده.

واجه بو الحسن سجنه في قلعة مَحفورة على قِمَّة تلٍّ، أشبه بعش النسور، حيث كان صوت الرياح وهدير الأمواج هو الضوضاء الوحيدة الذي يكسر الصمت العميق، بدت تلك القلعة أشبه بقبرٍ من سجنٍ، مما أثار في نفسه شعورًا عميقًا باليأس.

لم يستطع بو الحسن تقبُّل فكرة أن جثته لن ترتاح في راندة أو بانثيون أو الحمراء، فقد كان يطمح إلى أربعة أذرع من الأرض في أي مدينة منهم أكثر من رغبته في استعادة المملكة، وبدَا له أن نهايته الوشيكة أكثر مَرارة بسبب خوفه من أن يرَى جسده غير مدفون أو مُلقىً في وسط حقل عرضة للإهانات والتجاوزات، أكثر مرارة من فقدان العرش.

بعد تردد كبير، وكأنّه يُعاتب نفسه على الضعف، استسلم بو الحسن أخيرًا لطلبات زوجته وباح لها بالخوف الذي يُثقل كاهله، حاولت ثريا حبس دموعها ووعدته ببذل قصارى جهدها لتحقيق رغبته الأخيرة، في الليلة التي سبقت وفاته، شعر السلطان ببعض الراحة، كأنّه آخر شعاع من الشمس قبل الغروب، وبعد صراع داخلي مرير، خطَّ بيد مرتجفة هذه الكلمات القليلة: «لقد سرقتِ مني تاجًا، امنحيني على الأقل قبرًا»، لقد أدى الجهد الذي بذله في كتابة هذه الكلمات، والتناقض الذي شعر به في نفسه، إلى تقصير عمره، وعندما أعطى الورقة إلى زوجته، أطلق أنينًا ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها.

بعَزمٍ ووفاءٍ، ضاعفت زوجة الملك عنايتها بزوجها بو الحسن، وبعد أيام قليلة

انطلقت رحلة حزينة حاملة جثمانه إلى غرناطة، لكن إرادة الملك لم تُحترَم، حيث رفض بنو الزعغري دفنه في بانثيون، واختاروا له مكانًا قريبًا تحت كومة من التراب، وُضعت أحجار خشنة لتحديد مكان الرأس والقدمين، كما كان يُفعل مع الفقراء والعاجزين.

بعد الدفن، قاد زعيم بني غوميز الملكة المفجوعة في رحلة عبر فناء الأسود وساحة الآس وقاعة الحفلات الموسيقية، وصولًا إلى سرداب عُرف لاحقًا باسم «سرداب الكنز» لوجود كنزٍ داخل حدوده هناك، تركها حبيسة وحيدة مع حزنها المرير.

***

الفصل التاسع عشر

تسليم بو عبدالله غرناطة للمسحيين

بفعل هذه الأحداث التي عمّقت الخلاف بين بني الزعغري وبني الأحمر، وبعد المقاومة البطولية لمدينة سانتا في تحقيق انتصارات متتالية في جميع مدن مملكة غرناطة، سعى الملوك الكاثوليك إلى جمع المغاربة للاستيلاء على المدينة، عند توقيع شروط الاستسلام، تم الاتفاق على هُدنَة لمدة ستين يومًا، تُسلّم بعدها مفاتيح المدينة.

من المرجّح أن المفاوضين مِن جانب بو عبد الله، إدراكًا لشخصية ذلك الأمير، أرادوا منحه مُهلَة ووقتًا للراحة للحصول على موافقته، خاصةً مع صعوبة تهدئة مشاعر السكان الذين لم يتمكنوا من رؤية نير قشتالة الوشيك دون خوف وارتجاف.

ازدادت حِدَّة اليأس مع مُرور الأيام، حيث قلّت المُؤن وزاد عدد السكان بفعل تدفق اللاجئين من القرى المجاورة، وفقدت المدينة العديد من مُقاتليها المشهورين إما بالموت وإما الأسر، وضاق الحصار، وتعرَّضت السهول للتدمير، وباتت مدينة العدو تقف شامخة أمامهم، بينما انطفأت شعلة الأمل تمامًا.

لكن الخطر الجسيم قد يُشعِل جذوة المقاومة، كما تُشعل شرارة صغيرة حريقًا هائلًا، ففي أحد الأيام، بينما كان بو عبد الله في ساحة البيازين الرئيسية، يرافقه وزيره وأبرز رجال بلاطه، سمعوا ضجة هائلة في الشوارع المجاورة، ورأوا جموع الشعب يخرجون من بيوتهم غاضبين ويهددون.

لم يُمهِل الوقت هؤلاء الفرسان الأشداء سوى لحظات لحماية الملك بأجسادهم، فشكلوا حوله جدارًا منيعًا، وبعد صدّ موجات الغوغاء التي حاولت الاستيلاء على الملك، اقتادوه إلى القصر المجاور وسط مخاطر جسيمة.

وبمجرد تأكُّدِهم مِن سلامته، سارعوا إلى كَبح جِماح غضب الشعب الذي كان يزداد اشتعالًا مع مرور الوقت، وبات الليل قد أرخى سدوله عندما نجحوا في تهدئة ثورتهم إلى حد ما، وذلك بفضل الحيلة والوعود، وبفضل هيبة الجنود المسلحين

الذين هرعوا بكل سرعة من المدينة إلى القصبة.

كان سبب هذا الاضطراب رجل عربي يُعرف بالجنون، وكان يتظاهر به لأجل هدف مؤلم، وهو أن يُظهر نفسه مُلهمًا من السماء في نظر العامة الشذّج، فكان يتجوّل في الشوارع والساحات منذ فترة، يُحرّك مشاعر الناس وينشر (كقطر مِن البَارود سَهل الاشتعال) شائعة مُفادِها أن بو عبد الله يتفاوض لتسليم المدينة للكفار.

أشعلت خطبة ذلك العربي المتعصّب فتيلَ آخر خطَرٍ واجهته مدينة غرناطة، خطرٌ جسيمٌ كان يهدد بمحوها من الوجود، لكن بفضل مشيئة الله تم إيقاف الضرر في بدايته.

لا يزال مصير الشخص الذي تسبب في هذه الفضيحة مجهولًا، فقد اختفى دون أثر، إما أنه اختبأ خوفًا من العقاب وإما أنه أُلقِيَ في بئر أيرون في الليلة نفسها، كما تهمس العامة بخوف.

أدّى رعب بو عبد الله إلى سيطرة مشاعره على عقله، وكان تأثير الغضب الشعبي على روحه كبيرًا أيضًا، وبسبب ضعفه دفعه ذلك إلى التحوط من الخطر الذي اعتبره أقرب، دون الاهتمام بالمخاطر البعيدة، لذلك رَفض مُنذ تلك اللحظة الوفاء بما اتفق عليه، عبثًا حاول وزيره ابن قميصة وشقيقه مولاي إقناعه، وألحوا عليه، ووضعوا أمامه المخاطر الجسيمة التي يعرض نفسه لها بسلوكه هذا، لكن لم تكن الصلوات أو الحجج قوية بما يكفي مثل صدى تهديدات العامة التي لا تزال تبدو وكأنها ترِن في أذنيه.

بعد استنفادِ كافة السبل لإقناع بو عبد الله، أرسل زعماء غرناطة رسائل سرية إلى الملوك الكاثوليك تُعلمهم بالوضع الحرج الذي وصلت إليه المدينة.

وبعد الاطلاع على الرسائل، رأى الملوك الكاثوليك أنه من المناسب توجيه رسالة إلى بو عبد الله وسكان غرناطة، تضمنت الرسالة تأكيدًا على حسن نِيّتهم ورغبتهم في مُعاملة أهل غرناطة بلطف كبير، لكنهم مزجوا الوعود اللطيفة بمرارة التهديد، مُذكّرين بمصير سكان مالقا الذين لم يستغلوا فرصة اللطف والرحمة.

وصلت الرسالة في الوقت المناسب، بينما كانت المدينة تعيش حالة من اليأس التام، أدى ذلك إلى تغيير موقف المتشددين، وحتى بو عبد الله نفسه، خوفًا مِن عَودة الغضب الشعبي، طلب من الملوك الكاثوليك تسريع الموعد المتفق عليه ودخولهم المدينة في أقرب وقت ممكن.

في يوم تسليم غرناطة، يوم سعيد للأرض والسماء، حيث انتهت العبودية القاسية التي استمرت ثمانية قرون على إسبانيا، بدا الصباح مشرقًا وساطعًا مثل أجمل أيام يناير في تلك المنطقة المحظوظة.

مع إشراقة شمسٍ مُتوجةٍ بألوانٍ زاهية، انطلق الجيش المسيحي، تاركًا وراءه ثَوب الحداد الذي لفَّ البلاط حزنًا على فقيد أمير البرتغال، تألق النبلاء والفرسان والقادة في حللٍ فاخرة، بينما عمَّت السعادةُ صفوفَ الجنود، فكلّ شيءٍ كان يشيرُ ببدءِ احتفالٍ عظيم.

في غرناطة، سَادَ الارتباكُ والخوفُ، وبدتِ المدينةُ كأنَّها مدينة أشباح، لم يُفتح بابٌ أو نافذةٌ في ذلك اليوم، ولم يُسمغ في الشوارعِ صوتٌ لأيِّ كائنٍ حيٍّ أو وقعُ خطواتٍ.

في أعمقِ زوايا المنازل، اجتمعتِ العائلاتُ المَنكوبة، يُردِّدُ كبارُ السنِّ اللعناتِ على طولِ أعمارهم التي امتدت لتشهدَ بأعينهم مثلَ هذه الكارثة، وربما تجنَّبَ الآباءُ مداعباتِ أطفالهم الرقيقة التي مزّقت أرواحهم.

حِرصًا على تجنُّب أي فوضَى قد تُثيرها جنودهم، وخشيةً من انزعاج سكان المدينة، طلب بو عبد الله مِن القوات المسيحية عدم دخول المدينة من وسطها، تمّت الاستجابة لطلبه، وعُيِّن أشخاص مِن قِبل الملوك الكاثوليك لتسلُّم قلعة الحمراء من خارج الأسوار.

في المَوعد المحدد، خرج بو عبدالله من أحد الأبواب الواقعة عند سفح برج في سبعة طوابق، كان يرتدي عباءة سوداء، وليس كعلامة على الحزن، ولكن كرمز للكرامة الملكية، وعباءة رقيقة على كتفيه، وعمامة بيضاء على رأسه، بدا وجهه جادًا

وأكثر شحوبًا من المُعتاد، رافقه مَوكب صغير من حوالي خمسين شخصًا، و اتَّجه بخطوات بطيئة إلى ساحة شهداء إشبيلية.

هناك، التقى بالكاردينال الكبير لإسبانيا وكونت تينديل مع رجاله، الذين جاءوا لتسلُّم الحمراء، سلَّم عليهم الملك بكرامة دون التلفظ بكلمة واحدة، ثمَّ نزل عبر تلك الأماكن باحثًا عن ضفاف نهر شَنيل.

مع انسحاب الشباب مِن القلعة، بقي وزيره ابن قميصة وعدد من القادة لتسليمها، صعد الكاردينال إلى قمة برج يطل على بوابة شارع القمر، ورفع صليبًا فضيًا كان قد حمله رمزًا للحرب المقدسة، في اللحظة نفسها، وفي برج فيلا المجاور، رفع رئيس دير سانتياغو راية شفيع إسبانيا، بينما رفع كونت تينديل راية الملوك المجيدة.

مع حُلول الساعة الثالثة بعد الظهر، ظهرت في السماء علامات الخلاص والمجد، وعندما شاهدها الملوك الكاثوليك، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر هذه اللحظة التاريخية، تملَّكهم شعورٌ ممزوجٌ بين الشك والأمل، فجثوا على ركبهم شكرًا لله على انتصاره، وتبعهم الجيش الضخم في الحركة نفسها.

فور ذلك، رفع الأسقف القديس فراي هيرناندو دي تالايرا، الذي تم تعيينه على كرسي غرناطة، وبعض كبار رجال الدين أصواتهم المهيبة، وبدأت الكنيسة الملكية ترديد ترنيمة تي ديوم(17)، بينما رافقها آلاف المحاربين ببكاء متقطع ودموع الحنان والامتنان.

وصل الملك دون فرناندو إلى جسر شنيل، فتوقَّف عند مُنعطف في النهر حيث كان يقع مسجدٌ تحوَّل لاحقًا إلى كنيسة صغيرة باسم القديس سيباستيان، ودام هذا الاسم حتى يومنا هذا، هناك انتظر الملك وصول بو عبد الله، الذي نزل من على حصانه فور رؤيته للملك، واقترب منه لتقبيل يده، لكن الملك منعه فقبَّل بو عبد الله ذراعه اليمنى وسلَّمه مفاتيح غرناطة، قائلًا بكلماتٍ مؤثرة: «خذ يا سيدي مفاتيح غرناطة، ولا أطلب منك سوى معاملة سكانها برحمة ورأفة»، توقَّف بو عبد الله عنِ الكلام، واختنَق صوتُه في صَدرِه، فاحتضنه الملك فرناندو علامة على الصداقة، ووجَّهه بكلماتٍ مُواسِية، لم يبقَ المَلكان سوى لحظاتٍ قصيرةٍ معًا، لكن قبل أن

ينفصلَا، قدّم بو عبد الله طلبًا للملك فرناندو نابعًا من شعورٍ نبيل، توسّل إليه، بما أنه حظي بمصيبة انتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا في عصره، أن يعطيه الملك الكاثوليكي وعده الملكي بإغلاق الباب الذي خرج منه، دون أن يمرّ به أي شخصٍ آخر مَرّة أخرى، وعَدَه الملك فرناندو، وتمّ الوفاء بوعده بأمانة.

بعد وداعٍ قصير، انفصل الملكان عن بعضهما بعضًا، عبّر بو عبد الله عن رَغْبَتِهِ المُلِحّة في اللحاق بعائلته التي سَبَقته في المَسير، وعندما التقى بالملكة إيزابيل بالقُرب مِن قرية أرميلا، استخدم العذر نفسه للتوقف لبضع لحظات فقط، أدركت الملكة الحكيمة بدقة فائقة مدى صعوبة مَوقف الملك المخلوع في تلك اللحظة، فكرّرت له مشاعرها الودية وأخبرته أنها لا ترغب في تأخير سعادته في العودة إلى أحضان عائلته.

انطلق بوعبد الله في رحلة شاقة، تسارعت خطواته مع هبوط الظلام، وعِند سَفح الجبل انضم إليه أفراد عائلته، وبينما كان يضعَد قِمّة الجبل، لاحظ فَجوة ضيقة تشبه بوابة مقطوعة بدقة في الجبل، بحجم يسمح بمرور شخص واحد فقط، أدرك بوعبد الله وربما كان شعوره صحيحًا أن عبوره لهذه الفجوة يعني وداع غرناطة إلى الأبد، لم يستطع تمالك نفسه فالتفت ليراها للمرة الأخيرة، انبعث من صدره أنين عميق هزّ أرجاء الجبال، وانسكبت دموعه بغزارة حتى غطّت وجهه كحجاب كثيف.

لاحظت عائشة حزنه، فشعرت بعودة قوتها التي كانت قد وَهنت بسبب مرض شديد، وبنظرة غضب وازدراء، قالت لابنها: «إن بكاءك كالمرأة يدل على ضعفك، فلو لم تستطع الدفاع عن مملكتك كرجل، فلا فائدة من دموعك!» لم تقل المزيد، وأخفضت رأسها ناظرة إلى الأرض دون أن ترفعه مرة أخرى طوال الرحلة.

استمر الموكب في صَفتٍ وحُزن عميقين، وعندما روى الناس لاحقًا قصة هذه الرحلة، أطلقوا على ذلك المكان اسم «تنهيدة العربي» تخليدًا لذكرى حزن بوعبد الله وألمه على فقدان مملكته.

***

الفصل العشرون

حسرة بو عبد الله لفقدان غرناطة

ووفاة السلطانة ثريا

بسرعة البرق، جَمَع بو عبدالله وطاقَمه الأشرعة، فالميناء على مقربة، والسماء تلبس ثوبًا مِنَ الغيوم، لقد كانت حرب غرناطة تلك المواجهة الضارية بين إمبراطوريَّتين على مدار عشر سنوات مشهدًا فريدًا ورائعًا لا يُضاهى، لكن سرعان ما بدأت بوادر اضطرابات خفية تُطلُّ برأسها داخل المدينة بعد فتحها، نذيرًا لثورات أكبر قد تُشعِل نيرانها عاجلًا أم آجلًا، فقد كانت مُهِمة توحيد مشاعر شعبَين متنافرين، قاتلوا دون هوادة لثمانية قرون، مهمة صعبة للغاية، شعوب تختلف في الدين واللغة والقوانين والعادات، ولكن إذا كان هناك أي أمل في تحقيق ذلك، فكان لا بد مِن الاعتماد على عامل الوقت والصبر، مع الاستفادة بذكاء من فنون السياسة والسعي لفك العقدة بدلًا من قطعها.

ولكن مع الأسف، لم يُؤخذ بهذا النهج، فقد أدَّث مشاعرُ الصبر الطبيعية لدى المنتصرين، ورغبتهم في كبح جماحِ النفوس المتمرِّدة، والغيرةُ الدينيةُ التي تفاقمت حِدَّتها مع ازديادِ العوائق، إلى تأجيجِ نيرانِ الفتنةِ تدريجيًّا، وبات مِنَ السهلِ اندلاعُ حريقٍ هائلٍ من مُجرَّدِ شرارةٍ صغيرة في بادئ الأمر، حافظَ وجودُ الملوك على بعضِ الهدوءِ في النفوس، وساعدَ على ذلك تأثيرُ رئيسِ الأساقفة، الذي كان يتمتعُ بِحِلمٍ إنجيليٍّ حقيقيٍّ، وحماسة هيرناندو دي زافرا المُستنير، الذي كان قد أبرمَ شروطَ التسليم، وكان يُقدمُ نفسَه بشكلٍ طبيعيّ كمترجمٍ أمينٍ لها، عارضًا نفسَه كوسيطٍ بين المنتصرين والمقهورين.

ولكن لم تُفلِح هذه الأسباب في دَرء الصراع الحتمي بين الطرفين، فسرعان ما تحوَّلت الشكاوَى المكتومة والسخط المكبوت إلى اضطرابات وتهديدات وتجاوزات وتمردات، وتنوَّعت الأساليب لتهدئة الأمور بين اللين والقُوة، لكن كان مِن المُرجح أن يكون السلام المزعوم مُجرد هدنة مؤقتة، وأن تتفاقم الجِراح المَدفونة في النفوس

أكثر فأكثر.

ساهَم أيضًا في تفاقُم الضرر بقاء رئيس أساقفة توليدو، الشهير خيمينيز دي سيسنيروس، في غرناطة، وتكليفه بالمشاركة في تنصير المسلمين، فقد كانت طبيعة روحه تتعارض مع سياسة التأمل والاعتبارات التي اتَّبعها رئيس أساقفة غرناطة بفَضْلِ طبيعته اللطيفة والتوفيقية، دون جدوَى، إن ترك سبب آخر للاضطراب وسط عديدٍ مِن عناصر الفتنة هو خطأ فادح مِن قِبل هذين الملكين الحكيمين!

لم يتردَّد الملوك في قَبول العرض، وما زال بعضهم يَنسب الفضل في ذلك إلى الملك فرناندو المُحنَّك، الذي يعتقد أنه رتَّب الأمور دون رغبة كبيرة من بو عبد الله، وربما دون علمه، مُستخدِمًا نفوذ ابن قميص وأخيه على نفسية ذلك الملك الضعيف.

في الواقع، عقدوا معاهدة لبيع ممتلكاتهم، وتنازلوا في الوقت نفسه عن الممتلكات والإيرادات التي حصلوا عليها من الملوك الكاثوليك، كمكافأة على الخدمات المُقدَّمة، أو إن شئت، كسعَر رخيص لخيانتهم وغدرهم.

في قرية أندراكس، حيث انتهى حكم الزغبي بشكل بائس، استقبل بو عبد الله ابن قميص وأخيه عند مُغادرته إلى إفريقيا، وعندما قدموا له كومة من الذهب لإبهاره وكسب رضاه، شعر بنوبة من الكرم، وكاد أن يرمي نفسه عليهم ليعانقهم.

بعد كبح غضبه إلى حد ما، عاد إلى حَالَة الضعف الطبيعية، ولم يتكلَّم سوى بضع كلمات في الأيام القليلة التي سبقت مغادرته، تم ذلك عبر ميناء ألمريا حيث صعد على متن سفن التي قد أمر الملوك الكاثوليك بتجهيزها حسب الاتفاق.

لم تَسلم الملكة مِن شعور الندم، بل عبَّرت عن استيائها من تعصب الرئيس وقِلَّة حِنكته، فالقسوة المفرطة كما جرت العادة لم تؤدِّ إلَّا إلى زيادة المقاومة وشدّة عنادها ومع تصاعد التوتر، لم يكن أمامهم سوى اللجوء إلى ما يشبه البتر كعلاج وحيد فعال ضدّ هذا العنف المتأصل.

منذ البداية، ظهرت علامات القلق والاضطراب في أراضي البُشرَى، التي بدَا أنَّ طبيعتها الوعرة وشخصية سكانها الجريئة تجعلها مهيَّأة لتصبح حصونًا وقلاعًا

للتمرد الذي يلوح في الأفق، خوفًا مِن هذا التمرُّد أو عَدَم رضىً عن وضعه، تبدَّلت أحوال بو عبد الله، الذي كان قبل ذلك بقليل ملكًا على جميع أنحاء المملكة، وقَبِل بأن يكون تابعًا بأوهام زائفة عن كونه سيدًا، بعد عامَين فقط من استسلام غرناطة، أظهر استعداده لبيع الممتلكات التي أعطتها له الملوك الكاثوليك، وكل ما كان يملكه سابقًا، عبَّرت والدة الأمير وزوجته وشقيقته عن النية نفسها، حيث قرروا جميعًا الانتقال إلى أجزاء من إفريقيا، وكأنَّ تيار القدر الذي اجتاح القوة الإسلامية في إسبانيا كان يحمل بقايا وعلامات عظمتهم، واحدًا تِلو الآخر، إلى السواحل المُعاكِسة.

وصل بو عبد الله إلى سواحل إفريقيا محاطًا بعائلته فقط، مع حاشية صغيرة ودون صديق واحد، محملًا بكنوزه ولعنات رعيَّته، اتَّجه إلى مدينة فاس، سائرًا على خُطى عمه المشئوم، لكن على عكس عمه، حظي بو عبد الله بترحيب طيب، عاش هناك بضع سنوات في أحضان الثراء، إلا أنه لم يجد السعادة، بل كان أكثر تعاسة وشقاء من أفقر رِجل.

ظلت ذكرى غرناطة تُطارِده في كل مكان، كسلسلة ثقيلة يسحبها الأسير على الأرض، لم يغمض له جفن دون أن يرى غرناطة في أحلامه، ولم يستيقظ دون أن تظهر له الصورة نفسها، مما انتزع منه أنينًا عميقًا، وازداد عذابه لعدم وجود مُتَنَفَّس لنطق ذلك الاسم، فكلما نطق به أمام والدته، ألقت عليه نظرة سخط جعلته يخفض عينيه خجلًا وارتباكًا.

كان قلبه مُثقلًا بالهموم، حتى إنه كان يتوهَّم أن الأطفال يهربون مِن حضرته، يُشيرون إليه بأصابعهم ويهمسون بأصواتٍ خافتة: «هذا هو بو عبد الله، الملك المنكوب»! ولم يجد الراحة حتى في بيوت الله، فبينما كانت غرناطة تُبكي القلوب، وترتفع الصلوات لاستعادتها، كان يظنُّ أنه يسمع اسمه يُقترن بالشتائم واللعنات.

إيمانًا منه بضرورة دحض تُهَم الضعف التي لاحقته بعد سقوط إمبراطوريته، اغتنم فرصة إعادة تأكيد شجاعته، فطوَّع نفسه لمرافقة ملك فاس في حملته العسكرية ضد الأشقاء الشرفاء حكام المَغرب آنذاك، اشتعلت نيران الحرب ودارت رحى المعارك، وقاتل الطرفان بضراوة، أظهر بو عبد الله شجاعةً فائقة وعزيمة لا

تُقهر، كأنَّ الحياة قد أضجرته وبات يرنو إلى التحرُّر مِن عِبئها.

مُغطىً بجروح المعركة، واجه مصيرًا مشابهًا لمصير آخر ملوك القوط الغربيين قبل ثمانية قرون، حيث مات غرقًا في نهر النيجر، «هكذا سخر القدر مِن هذا الملك (كما علّق مؤرخ مرمُوق على وفاته) حيث مات دفاعًا عَن مَملكة غريبة، بينما لم يجرُؤ على الموت دفاعًا عن مملكته»، لم يكتفِ القدر بذلك، بل يبدو أن لعنة حلّت على نسله، فبعد سنوات عديدة من وفاته، كانت قصور بو عبد الله التي بناها على غرار قصور غرناطة، لا تزال تُعرض في فاس كتذكير بتلك المدينة، بينما كان أحفاد هذا الملك قد فقدوا أملاكهم وأصبحوا يعيشون على الصدقات.

بعد مغادرة بو عبد الله وعائلته للبشرات مُتّجهين إلى إفريقيا، اختارت ثريا الحزينة البقاء في تلك المنطقة مع أطفالها، تأخرت ثريا في الانتقال إلى أرض البشرات حتى ذلك الوقت، على الرغم مِن تحريرها من قبل الملوك الكاثوليك ومنحهم لها أراضي أُزجِيبَة وجُبَيلَة بعد أن باعها الزغل للملوك.

كان كل ما تُريده الأم الحنون هو الاستمتاع بالهدوء والسكون بعيدًا عن صخب المدينة، حيث ذكريات الماضي المؤلمة تُؤرّق روحها، أرادت ثريا الاستمتاع بجمال الريف ورؤية أطفالها يكبرون بصحة وقوة، مثل الأشجار التي تنمو في تلك الأرض المباركة.

Telegram:@mbooks90

استقرت مع أطفالها في وادٍ جميل بالقرب من مُنذُوجار، حيث كانت قد تعلقت به في الماضي، انتظرت هناك استعادة صحتها التي انهارت بسبب كل ما مرّت به مِن أحزان، على الرغم مِن عَدم إصابتها بأي مَرَض خطير، فإنها شعرت بأنها تفقد طعم الحياة، مثل نبات يذبل ويموت ببطء.

كان شعور داخلي يُخبر ثريا بأن نهايتها ليست بعيدة، ولاحظ أطفالها أحيانًا نظراتها الحزينة عليهم، كما لو أنهم كانوا الروابط الوحيدة التي لا تزال تربطها بالحياة.

ظلّت ثريا تعيش في ذلك المكان لفترة من الوقت، تنعم بالهدوء الذي كان يسود

تلك المنطقة، لكن سرعان ما سَمِعت صوتًا خافتًا، مثل ذلك الذي يسبق الزلازل، فأحسّت بالقلق من احتمال حدوث انتفاضة، وأنها قد تفقد هذا المأوى إذا اقترب صوت الأسلحة.

لم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى اشتعلت الثورة، سريعة وقوية مِثل النّار التي تشتعل في غابة كثيفة جافة بعد سنوات طويلة مِن الجَفاف، وزادت حدتها الرياح، وهرع إليها أشهر القادة، بل وحتى الملك دون فرناندو بنفسه، فقاموا باحتلال القرى وتدمير المواقع وإعادة إخضاع الأرض، واعتبروا سكان القرى الثائرة أسرى.

بينما كان الملك يشن حصارًا قاسيًا على لنجارون، التي أبدت مقاومة شرِسَة، تذكر أن أرملة بو الحسن تعيش بالقرب من تلك القرية، وسيطر عليه القلق من احتمال أن يلجأ المسلمون الساخطون إلى أبناء ملكهم السابق، أو ربما اعتقد أن العيش في تلك المنطقة التي مزَّقتها الحرب، قد لا يكون آمنًا، ولذلك أرسلَ أحد قواده ليخبر ثريا، بأسلوب دبلوماسي حذر، عن اهتمامه الشديد بسلامتها وسلامة أطفالها، ونصحها بالابتعاد عن تلك الأرض التي اتخذتها الفتنة مسرحًا لها، وأن تنتقل إلى غرناطة حيث ستجد السلام الذي تسعى إليه والاحترام والتقدير الذي تستحقه عن جدارة.

استمعت ثريا إلى رسول الملك باهتمام، وفهمت بذكاء أن وراء ستار النصيحة الودية يختبئ أمر قاطع، وإذا كان لديها أي شك، فقد تبدَّد تمامًا عندما عرضوا عليها شراء الأراضي والإيرادات التي مُنِحَت لها في جَبَل البشرات، وتعويضها بشكل كامل في أجزاء أخرى من المملكة.

أجابت ثريا باحترام، لكن بكلمات قوية تكشف عن مَرارة مَشاعرها، حاولت جاهدة إخفاء شعورها بأن هذا القرار هو نَوع مِن النفي، ناتج عَن شكوك لا أساس لها لم تفعل شيئًا يستدعيها، وكما هو الحال مَع الأرواح الحسّاسة خاصّة تلك التي تتلقّى ضربات من سوء الحظ يومًا بعد يوم، مَرِضت هذه المسكينة مرضًا نفسيًا أضعف قوتها.

بدا لها الأماكن التي ستتركها أكثر جمالًا من أي وقت مضى، بينما تخيّلت خيالها المُتوتر مخاطر ومكائد في غرناطة، خافت من أن الدم الملكي الذي يجري في عروق

أطفالها قد يجعلهم ضحايا مؤامرة خفية، وغطّتها رعشة باردة عندما فكرت في أنها سترى مرة أخرى الأماكن التي زارَتها في أوقات أكثر سعادة مع زوجها.

بذلت ثريا قصارَى جهدها لإخفاء ألمها ومَخاوفها في أعماق روحها، دفعتها إلى ذلك مشاعر الكبرياء، ورغبتها في عدم إتعاس أطفالها الذين كانوا يترقّبون كلماتِها ونظراتها، لكن الصراع الداخلي الذي عاشته، والذي ازداد فَظاعة كلما حاولت إخفاءه، كان أقوى منها، فما أن وصلت إلى غرناطة حتى أصيبت بحمى بطيئة ومستمرة رافقتها حتى قبرها.

لم تتمكن الأعشاب الطبية، التي يزخر بها ذلك البلد، ولا الهواء النقي الذي يملأ ضفاف نهر داوِر، من إيقاف مسار المرض المميت، فماذا تُفيد معرفة الإنسان ومساعدة الطبيعة عندما يكون الجرح عميقًا في القلب، يُعيق عمله وحركته؟ استهلكها حزنها العميق أكثر من الحُمَّى، وكأنها شعرت بلذة مُرَّة في التهام حزنها، فكل يوم عند غروب الشمس كانت تطلب أن تُوضع بالقرب من شجرة زيتون تطل على النهر وتبقى هناك لفترة طويلة، ساكنة، صامتة، لا تُظهر سوى علامات قليلة على الحياة من حين لآخر.

في ليلة خريفية، حيث بدأت رياح الخريف اقتلاع الأوراق الجافَّة من الأشجار، بقيت ثريا في ذلك المكان أطول من المعتاد، شعرت براحة معينة عندما رأت القمر يضيء الغابة والقصر بنوره الهادئ واللطيف، وبحركة لا إرادية، حدَّقت في المأوى المتواضِع الذي كانت تعيش فيه قبل زواجها من ملك غرناطة، ذرفت بعض الدموع على وجنتيها، مما خفَّف مِن ثقل قلبها.

مر شبابها وجمالها وحبها أمام عينيها بشكل غامض، مثل الصور غير الواضحة التي تنعكس في الماء، وتنهدت بعمق، وكأنها شعرت بالحزن في لحظاتها الأخيرة على ترك الحياة، ثم عانقت أطفالها بمزيد من الحنان عن المعتاد، وباركتهم، ونامت بعد ذلك بقليل.

في صباح اليوم التالي، وجدوها ميتة، لم يسمع أحد أي صوت، ولم يكن هناك أي علامة على صراع أو احتضار، كانت هادئة، ووجهها متجه إلى المكان الذي كان ينام

فيه أطفالها، ويديها على صدرها، ممسكة بالصليب الذهبي الذي تلقَّته من أمها في المَهد.

هكذا كانت نهاية هذه المرأة الفريدة، الجميلة، النبيلة، والموهوبة بكل ما يُمكِن أن يُزين مخلوقًا، يبدو أنها وُلِدت لتكون لُعبَة القدر، فبينما تحوَّلت إلى أسيرة، وارتفعت إلى عرش، لم تتمكن من الاستمتاع بيوم واحد مِن السعادة في حياتها المُضطربة.

النهاية

الشخصيات

مولاي بو الحسن(18)

(840/ 1436-1437)

[A]llāh, Mawlāy al-Ḥasan.)

مولاي بو الحسن، المعروف أيضًا باسم «الغالب بالله» و«مولاي الحسن» في الأرشيف الإسباني، هو أحد ملوك غرناطة من سلالة بني نصر (بني الأحمر)، ولد في غرناطة قبل عام ٨٤٠ هـ (بين عامي ١٤٣٦ و١٤٣٧ ميلادية) ونشأ فيها في كنف أميرها والده سعد، كان أكبر إخوته الثلاثة، يليه محمد المعروف بـ «الزغل» (تولى السلطة لأكثر من فترة) ثم يوسف.

إنجازات مولاي بو الحسن:

■ حكم مملكة غرناطة مرتين: الأولى من عام ١٤٦٤ إلى ١٤٨٢ والثانية من عام ١٤٨٣ إلى ١٤٨٥.

■ امتنع عن دفع الجزية لملك قشتالة مما أدى إلى اندلاع حرب بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة.

■ عرف عنه الشدة والغلظة في حربه ضد النصارى الأسبان.

■ خاض العديد من المعارك ضد النصارى، أهمها معركة لوشة (١٤٨٣) التي حقق فيها انتصارًا هامًا.

■ واجه صراعًا داخليًا مع ابنه بو عبد الله، آخر ملوك غرناطة.

■ تميز عهده بالعديد من الإنجازات العمرانية، مثل بناء قصر الحمراء وتوسيعه.

نهاية حكمه:

■ خسر غرناطة في حربها ضد مملكة قشتالة.

■ اضطر إلى تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين في عام ١٤٩٢.

■ تم نفيه إلى فاس في المغرب حيث توفي عام ١٤٨٥.

بو عبد الله بن الأحمر(19)

(1460-1533)

هو محمد بن علي من بني نصر، سماه أهل غرناطة الزغابي (أي المشئوم)، وقد عُرِف في المراجع الإسبانية بـ أبو أبديل أو الصغير، كان يدعى بالإسبانية Boabdil o chico

إيزابيل دي سوليس أو ثريا النصرانية(20)

كانت فتاه إسبانية عادية وتم أسرها وأعجب بها مولاي أبو الحسن، وأطلق عليها المسلمون ثريا، وقد أسلمت ثم تزوَّجت السلطان، بعد سقوط غرناطة تم طردها بطفليها من قبل زوجة السلطان الأولى عائشة بنت الأحمر وعادت إلى الممالك النصرانية وقد تنصَّرت في آخر سنوات حياتها، كانت تدعى بالإسبانية (Isabel de Zoraya Solis).

الملوك الكاثولوك(21)

في التاريخ الإسباني الحديث، دائمًا ما يُشار إلى مصطلح الملكين الكاثوليكيين كناية عن ملك أرجون فيرناندو الثاني وملكة قشتالة إيزابيلا الأولى، حيث تم منحهما هذا اللقب من البابا ألكسندر السيادس تكريمًا لهما بعد سقوط غرناطة.

Telegram:@mbooks90

السلطانة عائشة بنت الأحمر(22)

Aisha (Xisha)

هي ابنة السلطان محمد الخامس (الملقب بالغالب بالله) من سلالة بني الأحمر، حكام غرناطة في الأندلس، تزوجت من السلطان أبو الحسن علي بن سعد، آخر ملوك غرناطة.

- ولدت عائشة في غرناطة عام ١٤٦٢.
- تزوجت من أبو الحسن عام ١٤٨٢.
- كان لها دور سياسي هام في مملكة غرناطة.
- ساعدت زوجها في حكم المملكة.
- عُرِفت بذكائها وجمالها.
- سافرت مع زوجها إلى المنفَى بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢.
- توفِّيَت في فاس عام ١٥١٨.

أهم إنجازاتها:

- دعمت زوجها في حربه ضد النصارى.
- ساعدت في إدارة شئون المملكة.
- رعت الفنون والعلوم.
- بَنَتِ العديد من المساجد والمدارس.

دورها في سقوط غرناطة:

- اتهمت عائشة بالتسبب في سقوط غرناطة بسبب تدخلها في شئون الدولة.
- قيل إنها كانت تميل إلى ابنها بو عبد الله، آخر ملوك غرناطة، على حساب

زوجها.

■ اتهمت أيضًا بالتآمر مع النصارى.

---

(1) تقع مدينة جيان في جنوب إسبانيا، على بعد حوالي 100 كم شمال شرق مدينة قرطبة و280 كم شمال غرب مدينة إشبيلية.

/https://www.dipujaen.es

(2) كان الكونت دي كابر شخصية مهمة في تاريخ إسبانيا، لعب دورًا رئيسيًا في سقوط غرناطة، آخر معقل للحكم الإسلامي في الأندلس، كما كان حاكمًا لقلعة كابر، وهي قلعة قوية تقع في جبال الريف في جنوب إسبانيا، يُعرف الكونت دي كابر أيضًا بقصصه وأساطيره، كان يُعتقد أنه رجل قوي وقوي الإرادة، وكان يُقال إنه كان قادرًا على أداء المعجزات.

(3) يصور هذا المقطع أن المجتمع المسيحي في إسبانيا في القرن الخامس عشر كمجتمع متشكك وغير متسامح (وجهة نظر المترجم).

(4) يمكن أن تشير العبارة أيضًا إلى القيود الاجتماعية والثقافية التي تعاني منها إيزابيل كفتاة مسيحية في إسبانيا في القرن الخامس عشر، تشعر إيزابيل بأنها محاصرة في عالم لا يسمح لها بالعيش حرة ومستقلة، في سياق النص، يشير المعنى أكثر إلى الحالة النفسية لإيزابيل، تشعر إيزابيل بالحزن لأن الوهم المُحبب قد تبدّد، وتدرك أنها لا تزال محاصرة في عالمها القديم.

(5) Puentes levadizos الجسور المتحركة: هي جسور تُستخدم لعبور الخندق أو أي عائق آخر أمام القلعة، يمكن رفعها أو خفضها للتحكم في من يدخل القلعة أو يخرج منها.

Saeteras الفتحات: هي فتحات ضيقة في جدران القلعة تُستخدم لإطلاق النار على العدو.

Barbacanas الشرفات: هي شرفات بارزة من جدران القلعة تُستخدم للدفاع عنها.

(6) هو قصر عربي يقع في مدينة غرناطة، إسبانيا، يُعد أحد أشهر المعالم السياحية في المدينة، ويتميز بحدائقه الجميلة وهندسته المعمارية الفريدة.

(7) هو نوع من الحرف اليدوية التي تُستخدم فيها خيوط معدنية رفيعة لإنشاء زخارف دقيقة ومعقدة.

(8) هي حدائق تقليدية موريسكية تتميز بتصميمها الجميل والهادئ، غالبًا ما تحتوي على نافورات وبساتين وأشجار ونباتات مزهرة.

(9) Xenil هو نهر في جنوب إسبانيا، ينبع من سلسلة جبال Sierra Nevada ويتدفق عبر مقاطعات غرناطة وقرطبة وإشبيلية قبل أن يصب في نهر Guadalquivir، يبلغ طول نهر Xenil حوالي 280 كيلومترًا (170 ميلًا) وهو أحد روافد نهر Guadalquivir الرئيسية، نهر Xenil هو نهر ذو أهمية تاريخية كبيرة، حيث كان بمثابة حدود بين ممالك مملكة غرناطة وقشتالة في العصور الوسطى، كان النهر أيضًا موقعًا للعديد من المعارك، بما في ذلك معركة إشبيلية عام 1248، والتي أدت إلى استيلاء قشتالة على المدينة.

(10) كلمة cántico de la mañana مقصود بها ترنيمة أو نشيد، ولكنها غير مناسبة للثقافة الإسلامية فتم استخدام كلمة أذكار

(11) تُستخدم أوراقها وأزهارها في الطب التقليدي لعلاج بعض الأمراض مثل الربو والتهاب المفاصل، تَم من النباتات المقدسة عند بعض الشعوب العربية.

(12) مُهرجانٌ أو احتفالٌ تقليديٌّ يُقامُ في الأندلسِ، يتضمنُ رقصًا وغناءً وموسيقىٰ، كلمة «زَمْبَرَةٍ» مشتقةٌ من الكلمة العربية «زمْرَةٌ» التي تعني «الجمع».

(13) الزَّغْرِيّونَ هم عائلة نبيلة من أصل مورسكي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ غرناطة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، اشتهروا بشجاعتهم ومهاراتهم في القتال، وكانوا من أقوى الفصائل في المملكة، كان الزَّغْرِيّونَ في صراع دائم مع عائلة نبيلة أخرى، بنو سراج، وكان صراعهم من العوامل الرئيسية التي أدت إلى سقوط غرناطة في النهاية، في عام 1492، استسلمت غرناطة للقوات المسيحية، وتم نفي الزَّغْرِيّونَ من إسبانيا، يُعرف الزَّغْرِيّونَ الآن بشكل أفضل بفضل رواية واشنطن إيرفينغ «قصة الحمراء»، والتي تحكي قصة حب مأساوية بين زيجري وفتاة مسيحية.

(14) رندة هو الاسم العربي لمدينة Ronda في إسبانيا، تقع المدينة في منطقة الأندلس ذاتية الحكم ، في جنوب إسبانيا، تقع على بعد 105 كيلومترات (65 ميلًا) شمال شرق مدينة مالقة.

(15) هرة هي مدينة وبلدية في مقاطعة قادس ، في منطقة الأندلس ذاتية الحكم في إسبانيا، تقع على بعد 89 كيلومترًا (55 ميلًا) جنوب شرق مدينة قادس ، على ساحل بحر البوران

(16) استخدم الكاتب لوصف المسلمين كلمة الكفار في النص الأصلى

(17) ترنيمة شكر تقليدية في المسيحية.

(18) المصادر : Real Academia de la Historia: biografías (Abu l-Hasan ‹Ali ·)

بو الحسن علي بن سعد، حكم «الأندلس الصغرى» 20 عامًا ومات منفيًا.

• Bernáldez, Andrés(1962-1975)، Crónica de los Reyes Católicos، Edición crítica de Manuel Gómez Moreno y Juan de Mata Carriazo، Madrid: Real Academia de la Historia, 3 vols

(19) محمد عنان، دولة الأندلس في الاسلام، ج 4 /ص.54-37

(20) López de Coca, J.E, «The Making of Isabel de Solis» en «Medieval Spain: Culture, Conflict and Coexistence» Collins, R، y Goodman, A., (2002)

Caunedo del Potro, B، «Soraya», Real Academia de la Historia

(21) Real Academia de la Historia: biografías (Reyes católicos),

Luis Suárez Fernández: Claves históricas en el reinado de Fernando e Isabel, Madrid, Real Academia de la Historia, 1998.

(22) Mármol Carvajal, Luis del (1998.)، Historia del rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada، Málaga: Editorial Arguval.